مطلوب شعب

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: مطلوب شعب
تـأليـــــــف: د. عبد الناصر النجار
غلاف: عبير سعد
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنة النشر: 2025
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القطع: 14*20

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 3595 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 608 - 1

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

مطلوب شعب

د. عبد الناصر النجار

سيرة ذاتية

الإهداء

وإني لأعشق الطب كما يعشق المجنون ليلى
ولولا الذين تعاملت معهم من المرضى ومن معهم
لما كنت ذلك الطبيب أبدًا
لا أعرف إلى من أُهدي كلماتي؟
أإلى الطب الذي أعشقه!!
أم إلى هؤلاء الذين عالجتهم وأحببتهم!!
أم إلى هذا الشعب الذي لم يعجبني شعب مثله!!
ربما يخالفني البعض لكنني ما زلت أعشق الوطن
عشًّقا يليق بمقامه في قلبي
وأعشق أهله خاصةً بسطاءه وفقراءه وحتى مجرميه
في لحظات مرضهم أو تعرضهم لإصابات الإجرام.
إنني حقًا أؤمن بهذا الشعب إيمانًا تؤكده الأحداث
فكم من لحظةٍ كانت قاسية
لكن معدن القوم وإن علاه الصدأ أحيانًا
إلا أنه دومًا مصنوع من ذهب
المجد دائمًا وأبدًا لكِ يا مصر
ولهذا الشعب العظيم..

د. عبد الناصر النجار

ومن أحياها..

(١)

ألف يوم ويوم

من زمان أخدت عهد على نفسي إن أي حادث أشوفه لازم أنزل واتصرف فيه كطبيب؛ إنقاذًا لحياة الناس لعلها تكون في الكتاب ومن أحياها..

بدأت هذه الرحلة من العام ١٩٨٨ وأنا في بداية السنة الدراسية الخامسة لكن الأقدار ألقت بحيوات كثيرة في طريقي منذ هذا اليوم..

- إلحق يا دكتور في طفلة وقعت من على السطح وماتت..

كانت الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا، كنت في قريتنا شرباص أتناول الغداء الذي صنعته أمي الغالية، أذكره جيدًا وطعمه مازال في فمي، كان الغذاء بوري مشوي وأرز وسلطة، وأنا غارق في بطن السمكة سمعنا صرخة من الشارع يقطر من حروفها الموت، خرجت إلى الشارع حافيًا لأجد طفلة في عامها الثاني تقريبًا وقد توقف قلبها نتيجة السقوط من أعلى بيت مجاور لنا.

إنها ابنة زميل دراسة كان معي في المرحلة الابتدائية حاولت جاهدًا إنقاذها، فقمت بعمل تدليك للقلب مع تنفس بالفم، وعاد القلب ينبض مرة أخرى لكننا بحاجة ماسة إلى إسعاف ومستشفى.

أخذتها في سيارة ربع نقل حفاظًا على الوقت وحياتها، لكن أحد البسطاء يقف أمام السيارة مانعًا إياها من الحركة قائلًا:

- أنتم هتلعبوا في أولاد الناس؟ دي ميتة وأنا شفتها.. الله يعوض على أبوها..

إنزل يا جدع منك له بلاش لعب عيال.. لكنني صرخت في السائق قائلًا:

- اخبطه وامشي..

ساعات انتظرتها لأنظر إلى الحياة تستقر في جنبات الطفلة مرة أخرى..

ولما رأيتها بعد الحادث بعشرين عامًا، قال أحدهم:

- بنتك يا دكتور.

نظرت غير مستوعب الوصف، فقال لي:

- فاكر الطفلة اللي وقعت من فوق السطح وإنت اللي أنقذتها، هي العروسة الجميلة دي..

(٢)
أنا الحُسين

العام ٢٠٠٥.. الساعة تقترب من السادسة مساءً، أدخل من باب عيادتي القديمة في باب اللوق، ليقوم أحد الجلوس بالقفز من مكانه واحتضاني والتعلق برقبتي بمحبة الأبناء، وبراءة الأطفال رغم كِبر سنه.

أدخل إلى حجرة الكشف وأسأل المساعدة من هذا الشاب؟ فتخبرني أنه طلب زيارة خاصة.

دخل الشاب إليّ.. مهندس في ثلاثينات العمر، نحيف القوام بوضوح، هادئ الصوت والملامح، كانت ملامحه البسيطة توقع في النفس بعض التساؤلات التي لا أعرف لها سببًا.. سألته من أنت؟

فقال بلسان عربي غريب وكأننا في القرن الثاني الهجري:

- أنا الحُسين بن كريم الدين..

أصابني شعور بالخوف لا أعرف له سببًا، لكن طريقة الرد كانت مقلقة، قلت له في هدوء:

- أهلًا وسهلًا.. خير يا أستاذ حسين؟

فرد بلهجته الهادئة:

- أنا جاي أشوفك.

في الحقيقة زاد قلقي وخوفي، فأنا لا أعرفه بتاتًا البتة.

سألته متعجبًا:

- حضرتك تعرفني؟ فقال:

بالتأكيد.. لقد كنت السبب في عودتي للحياة بعد أن كانوا في طريقهم بي إلى ثلاجة الموتى.

اعتدلت في جلستي لغرابة الحديث وسألته:

- هي إيه الحكاية؟

بدأ يحكي حكايته، وأنه في شهر أكتوبر عام ١٩٩٧ تعرض لحادث هو وثلاثة من أصحابه في الثالثة فجرًا على طريق الأوتوستراد، مات أصدقاؤه الثلاثة في التو من عِظم الحادث، ونقلوا جميعًا إلى المستشفى الذي كنت أعمل فيه في هذه الساعة.

جلست أستمع إليه وبداخلي الكثير من الأسئلة..

أولها.. كيف عرفني وقد كان أقرب للموت منه للحياة؟

وثانيها.. كيف رأني وهو في موازين أهل الأرض ميت؟

سألته قائلًا:

- وإيه اللي حصل لما وصلت الطوارئ شبه ميت؟ فقال أنت قلت لهم "هاتوا ده هشتغل عليه دا فيه أمل".

هذه فعلًا كلماتي في مثل هذه الحالات..

أكمل قائلًا:

جابوني وأنا كنت رايح ثلاجة الموتى، وأنت بدأت تعمل ليا تدليك القلب وتضغط جامد على صدري..

الذي يشغلني الآن كيف عرف هذا أو رآه وهو في الحسابات ميت؟!

سألته عن ذلك بوضوح:

- كيف عرفت كل ما حدث بتفاصيله وأنت ميت؟

فقال بهدوء يجعلك ترتجف:

- أنا كنت شايفك..

- شايفني إزاي؟!

يجيب وعلى وجهه ابتسامة من عرف:

- كأني كنت موجود في سقف المكان، كنت شايفك من فوق..

وكأنها قصة فيلم أجنبي لكنه كان مُصِر أن هذا هو ما حدث بالظبط، سألته وأنا أشك في كلماته:

- وإيه اللي أخرك ٨ سنين علشان تجيني؟

أجاب بوضوح:

- أنا بعد ما الروح ردت فيا فضلت في غيبوبة حوالي شهر في الرعاية المركزة وعلى أجهزة التنفس، ولما فوقت سألتك عليك قالوا إنك في أجازة علشان بتناقش الدكتوراة..

كلامه صحيح بالفعل.. لكنني مازلت قلقًا، أخذت بياناته وذهبت باكرًا إلى المستشفى، طلبت ملفه للاطلاع، فكان كل ما قاله صحيح..

أنا من التقيته في الطوارئ وبدأت الإنعاش القلبي، فريق الرعاية أتم المهمة بنجاح، دخل الرعاية قرابة الشهر، وخرج وحالته جيدة.

بعد أسبوع زارني بالعيادة وكانت المفاجأة، فلم يكن وحده، كان معه توأمه المتماثل ليقدمه لي قائلًا:

- وهذا أخي الحسن بن كريم الدين.

(٣)

إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك!!

الثامنة والنصف من صباح يوم لا أذكره، أنا نائم بجوار عم أحمد "وزيري للنقل والمواصلات" ساعات النوم التي تلقيتها في البيت غير كافية وأنا أكملها في السيارة، نحن في طريق ما بعد الأوتستراد، الذي سيؤدي إلى طريق الكُريمات، المؤدي إلى بنى سويف..

صوت عم أحمد يصرخ "يا ستاار يا ستار" فتحت عيني ببرودة أعصاب الجراحين لأجد سيارة تطير في الهواء لتنتقل من الطريق الآخر إلى ناحيتنا.

قلت له بكل هدوء:

- أقف يا عم أحمد وانزل معايا علشان تأمني من العربيات على الطريق السريع ده.

السيارة كان بها رجلان أحدهما مازال في داخلها، بينما الآخر رأيته يطير منها وهي في الهواء قبل أن تسقط على الأرض مهشمة.

في لحظات وقفت السيارات لتنظر الحادث وتساعد الرجل الموجود داخل السيارة فحالته ليست سيئة، بينما الذي طار من داخلها توقف قلبه وانسد مجرى الهواء بعاملي التراب والسقوط، لأجده بعد هذه الدقائق لونه أزرق يقترب من السواد.

اطمئننت أنه يمكنني التصرف فالطريق مؤمن بالناس وأستطيع أن أجلس وأحاول إنقاذه، جلست عن يمينه وهو مفارق للحياة بلغة الناس الوقوف على الجانبين، وأحدهم يقول "إنّا لله وإنّا إليه راجعون".

فتحت فم الرجل وكان مليئًا بالتراب، وساعدته ليأخذ نفسًا للحياة مرة أخرى.

تدليك سريع للقلب مع إخراج التراب من فمه، دون انتظار قفازات أو قلق.. إنه الأن يتنفس، لونه يتحسن ضربات القلب مضطربة قليلًا لكن القلب ينبض..

إن شاء الله تعدي على خير.. استعجلوا الإسعاف من فضلكم، البعض يسأل وأنا أجيب:

- الحالة مطمئنة مفيش خطر رغم أنه فاقد الوعي.

كنت أتساءل في نفسي كيف للأقدار أن ترتب حضوري في لحظة العُسر تلك، فهذه المرة الأولى والأخيرة التي سلكت فيها هذا الطريق..

ماذا بين هذا الرجل وبين ربه ليسوقني إليه؟ أي خير رزقنا الله به في هذا الصباح، تُرى أنال أجر ومن أحياها؟

جاءت سيارة الإسعاف، حملوا الرجل على السرير المتحرك أخرجوا من جيبه حافظته للتعرف على شخصه، إنه السيد وكيل نيابة أحد مناطق حلوان -تقريبًا زهراء حلوان أو حدائق حلوان- لست أذكر تحديدًا.

أظنه رجل عادل، هكذا قلت لنفسي..

إن تأخري خمس دقائق فقط أو مروري قبل دقيقة واحدة من الحادث تعني بلغة الطب أن هذا الرجل هالك لا محالة.. لكنها الأقدار..

فإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمنايا كلهن أمان.

(٤)

أعظم دروس الأقدار

أنه ليس لك من الأمر شيء.

الثامنة مساءً بتوقيت القاهرة.. أخوان في طوارئ المستشفى أحدهما طالب جامعة والأخر طالب في الثانوية العامة في إجازة بمصر من رحلة وجودهما بالكويت،

أصابهما حادث وكانت إصابة الصغير محدودة، لكن إصابة الأكبر كانت قاتلة.

من باب الطوارئ إلى غرفة العمليات، فى محاولات فاشلة تمامًا لإنقاذه، فنوع إصابته مقسم في كتب الطب تحت بند الإصابات المميتة تلك التي لا نجاة منها في أي مكان حدثت.

كنت أنظر إلى هذا الشاب وأنا يعتصرني الألم، لم تنجح مهنتي في كسر هذا الجانب الإنساني، ولا في تحويل البشر إلى حالات ولا في تبرير المرض أو الموت..

إن أعظم ما رُزقنا في الحياة هي آدميتنا..

كان الموقف مؤلمًا بحق، خرجت من باب العمليات وقد تأكد لي أنه أصبح من أهل الآخرة، لأسأل عن أهله، فتأتيني أمه المنهارة تمامًا وتقول لي:

- طمني على إبني يا إبني.. هو بخير؟!

ماتت الكلمات التي يمكن أن أقولها، هززت رأسي أن الحالة خطيرة لكن ربنا يسترها، قالت:

- والنبي يا إبني إعمل له أي حاجة الله ينجيك.. لو عايزني أتبرع بدم أو أي حاجة أنا جاهزة.. أنا يا إبني نفس فصيلته..

أستمع إلى كلماتها الملتاعة وأنا صامت غير قادر على أي رد، كان بجوارها فتاة في سن العشرين تستند إليها، عدت إلى غرفة العمليات أفكر كيف أتصرف في هذا الوضع المؤلم.

خرجت بعد دقائق لتهجم عليّ الأم المترقبة، وكأنها تشعر بما لم أقله..

- إبني عامل إيه يا دكتور، ربنا ما يوقعك في ضيق.

كانت أم فاضلة يبدو أنها كانت مديرة مدرسة بدولة عربية، كلماتها قمة في الرقي، لكن الخوف كان يسبح في سماوات عمرها..

إنها لا تملك من الدنيا غير ولديها، إنهم كما نقول "اللي طلعت بهم من الدنيا".

قلت لها تنفسه فيه مشكلة وعلى جهاز التنفس، فقالت بس عايش؟!

هززت رأسي بوجع غير محتمل وأشرت دون أن تلاحظ إلى الفتاة التي معها أن تتبعني.

دخلت الفتاة فسألتها.. من أنتِ؟ قالت:

- أنا بنت خالته.. أخبرتها بالفاجعة فانهارت، قلت لها تماسكي أنا جايبك علشان تساعديني في إزاى نوصل الخبر لأمه على مراحل، واتفقت معها علي سيناريو من ثلاثة فصول، اتفقت معها أن تصرخ في وجهي عندما أخرج قائلةً:

- أنا حاسة إنكم مخبيين علينا حاجة، وأنا أقول إن الحالة حرجة جدًا، وبعدها أقول إن استجابته للأجهزة مش كويسة..

شيئ من توزيع الألم وتدريج الخبر على تلك الأم التي صنعت له الفطور في الصباح، وقالت له خلي بالك من أخوك ومتتأخروش علشان مش هتغدى إلا لما ترجعوا.. وربما كان ذاهبًا لشراء بدلة خطوبته كما نسمع كثيرًا..

إن الألم يكسوني ويكسو المكان، فلم يكن الموت غائبًا عن المشهد..

خرجت بعد عشر دقائق لأبدأ في أول فصول السيناريو وبينما البنت تستعد للسؤال الذي اتفقنا عليه، إذا بصوت من خلفي ينادي:

حد هنا من أهل فلان -إنه اسم الشاب الذي غادر الحياة، جرت أمه ناحية الرجل لتسأله:

- أنا أُمه يا إبني..

فقال في برود المقابر مشيرًا إلى ترولي حمل الجثث ذلك الذي يُغطى بغطاء من حديد وفيه جثث الموتى..

- ابنك هنا..

ماتت كل فرصة في نقل الخبر القاتل، صرخت الأم صرخة يصعب أن أنساها ما حييت، ثم سقطت على الأرض لا أعلم لها مصيرًا، أهو الفاجعة طوال ما تبقى من عمرها؟ أم أن الموت جمعها في هذه اللحظة مع ولدها؟!

أما أنا فجلست في جانب أبكي..

إن الموت لحظة فاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة..

(٥)

إديني عمر واضربني بعدها بالنار

شمس يوم من أيام العام ١٩٩٤ تغيب ومعها رجل في ستينات العمر عائدًا إلى بيته ليجد بائع جوافة في الطريق، يشتري منه اتنين كيلو جوافة ويضعهم في كيس أسود حتى لا ينظر أحد في اللقمة اللي الولاد هياكلوها.

الرجل طوله يقارب مائة وخمسين سنتيمتر، أسمر البشرة قليلًا، ذو شعر جعد لم يتبق منه إلا القليل في خلف رأسه معجون باللون الأبيض، رجل دهسته الأيام التي عشقها حتى أصابت سمعه وبصره.

تخبرك نظارته البلاستيك الملحومة خمس مرات، وصوت ذراعها إن حاولت فتحها كصوت صرير باب المزرعة، يركب "فيزبا" غير معلوم متى صُنعت ولا كيف تسير؟ دابة من عجائب الدنيا حقًا!!

وبالطبع ليس عليها أرقام مرورية مثل هذا النوع ترخيصه جريمة يعاقب عليها العقل، ناهيك أنه لا مال لديه لترخيصها.

الرجل في طريقه إلى البيت لكن ازدحام الطرق الرئيسية دفعه إلى الشوارع الجانبية - علشان ياخدها تخريمة، وكانت مصر في هذا الوقت تعاني من صدى بعض العمليات الإرهابية.

الرجل على دابته الحديد يسير وحوله أو للدقة خلفه بعض من الملائكة، وربما كان معهم ملك الموت يتعجب يا لهذا الرجل البسيط!! إلى أين يذهب؟ هذا طريق الموت..

إهروووب يا ويلد..

لكنها الأقدار حيث تريد تحملك، الشارع الجانبي الذي سلكه الرجل يؤدي إلى حيث يقطن وزير الداخلية آنذاك..

ضابط الحراسة يرى موتوسيكل قادم من بعيد، عليه رجل ربما بدا ملثمًا بشال يشبه ذلك الفلسطيني الذي يلبسه الثوار -يرتديه الرجل ليصد به الهواء والتراب..

الموتوسيكل بدون أرقام.. أشار للرجل بالتوقف، غير أننا لا نعلم هل رأى إشارته أم لا؟! لكنه لم يتوقف، وأكمل طريقه في هدوء..

الضابط يصرخ في باقي قوة الحراسة:

- الهدف وراه كيس إسود على الموتوسيكل، ممكن تكون قنبلة..

أقف مكانك..

أقف مكانك..

لكن طنين صوت الملائكة الملازم للعجوز كانت أعلى من صوت الضابط، بل وأعلى من صوت الرصاصة التحذيرية الأولى، ولم يكن هناك من مفر أن تكون الرصاصة الثانية في رأسه مباشرة..

يسقط الرجل من على دابته الحديدية، وتهجم الحراسة لمنع حدوث التفجير العظيم من القنبلة الموجودة في الكيس الأسود خلف الهدف -ذلك الكيس الذي انفرط

من هول السقوط لتتبعثر حبات الجوافة على الأرض.

فتح الرجل عينيه ليجدني أمامه في استقبال المستشفى، كان الضابط قد حكى لي الحكاية كاملة، سألت الرجل قائلًا:

- خير يا حاج!! حاسس بإيه؟ ليرد قائلًا:

- أنا دوخت وأنا سايق، ووقعت محسيتش بنفسي.. ثم يسأل:

- هو أنا مين اللي جابني هنا يا دكتور؟ قلت مشيرًا إلى الضابط:

- حضرة الضابط.

شكره الرجل بشده على كرم أخلاقه وسأله عن الفيزبا هي كويسة ولا جرى لها حاجة؟

أجريت كشفا شاملًا على الرجل لكن ليس به أي إصابة من أي نوع، الرجل سليم مائة بالمائة، يحدثني الضابط بصوت منخفض:

- أنا ضاربه بالنار والطلقة أصابته ووقع..

نقطة دم واحدة عند حافة شعر رأسه من الخلف، تلك التي لا تتجاوز عضة ناموسة، الضابط مُصِر أنه أصابه بالرصاصة، والعجوز مُصِر على شُكر الضابط، وأنا مُصِر على عمل أشعة.

لتظهر لنا في الأشعة رصاصة ميري ٩ مللي وقفت عند اتصال الجمجمة بالعنق عند خروج النخاع الشوكي من فتحة الجمجمة خلف الفقرتين الأولى والثانية، تلك المسؤولة عن الموت شنقًا!!

يبدو أن أحد الملائكة المحيطين بالرجل أشار لها أن تتوقف هاهنا، سنتيمتر واحد فقط تتحركه كان كفيلًا بموت الرجل وهو ما يزال على ظهر الفيزبا.

كان الضابط فرح جدًا أن الرجل لم يمت.. وأنا كنت أقرأ في كتاب القدرة كيف ينجوا من لا نظن له نجاة!

بينما الرجل كان يسأل بجدية:

- كان ورايا على الموتوسيكل كيس جوافة تعرفش ألقاه فين يا حضرة الظابط؟!

(٦)

وللسِمنة فوائد لا يعرفها إلا من طُعن بالسكين

الحادية عشرة مساءً في استقبال قصر العيني، امرأة قاربت الخمسين بها ٢٨ طعنة نافذة بالبطن والصدر -نعم الرقم صحيح ٢٨ طعنة نافذة، لكن الموت لا يأتي مع الطعنات، إنه يأتي مع نفسه ويأخد من يشاء دون أي مبررات ولا أسباب..

الحياة لا يمنعها غرق ولا طعنات ولا حتى رصاصة تخترق الجسد وعليه قالوا "إديني عُمر وارميني البحر".

طعنة واحدة من تلك الطعنات لو جاءت في مكان آخر لحملت في طياتها تذكرة الرحلة إلى الدار الآخرة.

الإسعافات الأولية في محاولة إنقاذها، أنبوبة صدرية ثم شق صدري لاستكشاف البطن واستئصال الطحال وجزء كبير من الأمعاء، طعنة نافذة اخترقت المعدة

وأُخرى في الطحال وخمس طعنات في الأمعاء، طعنتان في الرقبة، وجروح متفرقة في الأيدي من المقاومة..

المرأة وزنها يقارب ١٥٠ كيلو، كل مقومات العبور للآخرة متوفر إلا شيء واحد إن لسه مكتوب لها عُمر.. يبدو أنها ستنجو، كل شيء يرشد إلى الموت، لكن كل خطوة تمت أعادتها إلى الحياة..

إنها مُصِرة أن تعيش، متمسكة بالحياة إلى آخر الدرجات، فرق تعمل فى كل مكان بجسدها، الرقبة.. الصدر.. البطن.. الأطراف، نقل دم بكميات كبيرة، تمت العمليات بنجاح، ثم تم نقلها إلى الرعاية المركزة.

يعود لها وعيها، أمُر لأطمئن عليها، لأجدها في حالة جيدة.. تمر خمسة أيام وأعود لمتابعة الحالة، أتبادل معها الكلمات الطيبة، أحدثها:

- أخبارك إيه يا ست العرايس؟!

تضحك من قلبها:

- بخير بوجودك يا سيد الدكاترة؟

- مين عمل فيكي كده يا جميلة؟

ترد وهي تتناول ورك بطة:

- مرات ابني بنت الكلب.. كنت نايمة صحيت لقيتها قاعدة على قلبي وهاتك يا ضرب بالسكينة.. ثم تناولت شفطة كبيرة من كوب شاي ومعه سيجارة غالبًا غير نقية ثم أردفت قائلة:

- أطلع لها بس بنت الكلب ومحدش هينجدها من إيدي.

ثم تابعت:

- لو أعرف إن شوية الضرب دول يجيبوا دكتور حليوة كده في سكتي كنت ضربت نفسي بالسكين وجيت من زمان.

ثم طلبت من ابنتها أن تناولها قلم الكحل، وتروح تجيب لها غويشتين من البيت

أهو برضه حاجة تنور القعدة!!

(٧)

عم شقاوة كله شقاوة

الثامنة مساءً بتوقيت القاهرة، الدور الخامس في عمارة عيادة وسط البلد، رجل ستيني العمر طوله يتجاوز ١٨٠ سم، في وجهه شق قديم يذكرك بوضوح بأبرهة الأشرم.

وجه الرجل يفيض بتاريخ البشرية السيء، الشق له زاوية انحراف تتناسب طرديًا مع سلوك الرجل، سألته إسمك إيه يا حاج؟ -وإن كان استخدامي لوصف الحاج ليس في مكانه، لكنه قال:

- شقاوة.. فهمت من ابتسامته إن اسمه شقاوة..

"صلاة النبي أحسن"

ولكي تعلم حجم الشقاوة إليك الوصف التفصيلي لوجه السيد شقاوة..

شقاوة قبل ما يبقى شقاوة خد ضربة بساطور فلقت وشه نصين بزاوية اتجاه الضربة التي بدأت من الجهة اليسرى في فروة الرأس لتأخذ الحاجب الأيسر والجفن الأيسر وثلث الأنف الأخير والجهة

اليمنى من الشفة العليا وزاوية الفم اليمنى وبقايا من الفك ومعها شق زجزاج في الرقبة وعظمة الترقوة.

الشخص الذي أجرى الجراحة لعم شقاوة في عام نصر أكتوبر كان واحد من ثلاثة، إما إنه دكتور وكانت الغدارة بتاعة أهل عم شقاوة محطوطة على رقبته، أو دكتور منطقة عم شقاوة المُلقب بمشرط، أو إنه رجل عادي من فرحته بسماع خبر العبور لعب سبعات وتمانيات في وش عم شقاوة.

لك أن تتخيل كل هذا الجرح وقد التأم بشكل خاطيء تمامًا، الحاجب فيه نزلة سِلمه، والجفن العلوي بقى مشدود من النص وفتحة عين عم شقاوة بقت مثلثة، وطرف مناخيره توحي لك أنها ستسقط كلما هز الرجل رأسه.

وكله كوم وضحكة عم شقاوة كوم تاني، تلك التي تظهر لك ثلاثة أسنان سوداء سواد الليل، ويقطر من بينها الخوف.

صورة عم شقاوة تنفع تبقى طابع بريد في يوم الشقاوة العالمي، أو يوم سقوط بغداد.. عم شقاوة رمز أكتر من كونه رجل!!

عم شقاوة عنده ثبات انفعالي مخيف، وزاد الطين بله إنه حب يهرش ودنه قدامي، راح طلع مطواة قرن غزال وهرش بها ودنه من جوه، وحط الغدارة قدامه على مكتبي..

- أؤمر يا سيد المعلمين، خير فيه إيه؟!

أشار إلى ترعة المحمودية المحفورة في وجهه وقال:

- مش عايز لها أي أثر..

طلبت بسرعة السكرتيرة لتقدم حاجة للمعلم شقاوة يشربها، على بال ما أفكر أرد أقول إيه!! فكل الإجابات مُضرة، العلاج مفيهوش حكاية يختفي دي خالص..

والرفض مستحيل والغدارة قدامي على المكتب وممكن شقاوة يضطر يزفرها، وأنا عندي عيال عايز أربيهم..

وبعدين مش دي الحرب اللي أتغز فيها، ومن عم شقاوة كمان!!

يبدو أن ضربات قلبي كانت مسموعة لعم شقاوة، لذلك وضع رجل على رجل وعاش دور النمساوي في مسرحية فؤاد المهندس..

جاء الساقع للمعلم شقاوة فبدأ بالشرب وأخرج علبة سجائره وعزم عليّ بواحدة فاعتذرت كذبًا إن الدكتور مانعني من شرب السجاير إذ أن الحقيقة ستكون كارثية وسأُعامل معاملة العيال اللي بياكلوا جبنة نستو، لكنه أردف قائلًا:

- عليا الطلاق الدكاترة دي محبكاها بزيادة، عفر عفر يا دكتور ولا يصيبك إلا اللي من نصيبك..

استجمعت طاقتي ولبست توب رياض باشا المنفلوطي في جسد اللمبي، وقلت له:

- دي تبقى عيب في حقك إن الشق ده يروح، دي حاجة مسيطاك يا معلم شقاوة..

يعنى مش طبيعي إن الناس تشوفك طبيعي زي كل الناس، فين يا معلم السسبينس؟!

قصدي يعني الاختلاف، إنت هيبتك يا معلم في الشق ده..

الكلام شكله منطقي، لكن شاب مع شقاوة بوظ عليا الخطة وقال:

لا مش عايزين تسييط ولا خر* احنا مش عايزينها في وشه وبس..

(٨)

أم هدير زباينها كتير

بينما أرسلت عم شقاوة لعمل أشعة سينية على المنطقة المستخبية من شخصيته الهولوكوستية، دخلت أم هدير، وهي فعلًا أم هدير..

مِعلمة في أوائل الأربعينات مدملكة حبتين، ولها نظرة عين تودي على حبل الغسيل لما يتعمل مشنقة.

أم هدير تاجرة مخدرات قد الدنيا فاتحة فى ميدان الجيزة محل معتبر مش ناقصة غير الترخيص..

العام كان ٢٠١١ في نصفه الأول، أيام ما كانت الدنيا عاملة فيها طابخة ثورة، جلست المعلمة أم هدير أمامي وحولها ثلاثة شباب، إتنين عشريناتي بيشتغلوا بودي جاردات، وواحد أربعيني اختارته أم هدير يشتغل زوج..

لحد كده وأنا مش عارف أي حاجة، وبتعامل دكتور ومريضة، رحبت بالست أم هدير وبضيوفها رغم صغر حجرة الكشف آنذاك.

سألت أم هدير أسئلة تقليدية على وزن الإسم والسن والطول والوزن وأشياء أُخر، لكن لاحظت حالة من التململ في الحجرة غير مفسرة.

الشابين الواقفين شكلهم وقصة شعرهم والسلاسل اللي في صدرهم وشوية جروح قديمة -تحسسك إن الدنيا لسه بخير، تبادلوا نظرات عرفت بعدها إني غلطت،

والغلط دقيقة لكن الندم سنين يا شبح!!

رفعت المعلمة حاجبها الأيسر، وابتسامة بخد واحد لونه روز غامق وأشارت بيدها للراجل اللي شغال جوزها وبدون أي استئذان حطت رجل على رجل، وباك فاير سحبت نفسين ونفختهم ناحيتي..

لم تكن رائحة السجائر مريحة، لكن عادي خالص.. أم هدير تعمل ما بدا لها..

حتى هذه اللحظة أنا لا أعرف وظيفتها، ولا طبيعة هذه الرفقة معها، قالت بعد أن أشارت لهم بالصمت -وهي بتقلبني في دماغها:

- اسمع يا دكتور.. إنت شكلك ابن ناس وعلامك مقوي قلبك، معلهش لا مؤاخذة أقعد عوج واتكلم عدل، إنت مالك مستقل بينا كده ليه؟! أقل عيل في الصبيان دول عنده دولاب..

قلت في نفسي وما باب الشرف أن يكون للشخص دولاب!! طب ما أنا عندي دولاب، وكل عيل من عيالي عنده دولاب، هو دولاب دي حاجة عز يعني ولا إيه؟!

ظهر على ملامح وجهي بعض الامتعاض على غير قصد مني، أنا مش فاهم أي حاجة، ومش فاهم إن دولاب يعني دولاب مخدرات..

قال الرجل اللي شغلانته زوج إنت فاكر نفسك مين؟! احنا بالصلاة ع النبي نعمل منك....

ولم يكمل الجملة إلا وكف مخبرين نازل على وشه من المعلمة أم هدير وهي تقول:

- المعلمة لما تتكلم مفيش كلب يفتح بؤه!!

صمت هذا الجرو الأربعيني صمت القبور، وأدركت ساعتها أنني في حَضرة المعلمة أم هدير، اعتدلت في جلستي وهيئتي ولغة حواري، ودخلت في الموضوع على طول:

- أؤمري يا معلمة، عايزة تعملي إيه؟!

أدركت المعلمة أنني فهمت، فقالت مبتسمة ومحاولة أن تطمئن قلبي:

- يا رب ما يُأمر عليك ظالم.. قول آمين

قلت مُرغمًا محتسبًا آمين.. فأكملت قائلة:

- ولاد حلال دلوني عليك وقالوا إنك ملك التجميل وفي النحت ملكش مثيل..

كنت أدعو من كل قلبي على ولاد الحلال دول، وأقول في نفسي ولاد حلال إزاي بس!!

لبست توب المعلمين ورفعت حاجب الإعجاب وقلت لها بصوت يشبه صوت صلاح قابيل في وكالة البلح:

- دا بس من زوقك يا معلمة.. أؤمري.. قالت:

- عايزاك تنحتني على زوقك..

مطلوب أن أكشف عليها وسط هذا المولد، وأنا لا أعرف هل هذا جائز في عُرف أهل الكار ده ولا لا!!

فقلت بصوت ضعيف قريب من العشق، وأنا خائف حد الثمالة:

- مطلوب أبص عليكي يا معلمة علشان أحدد هنعمل إيه!!

فقالت بصوت مشروخ من السيجارة الأخيرة:

- انكشح ياض منك له..

انكشح الصبيان وبقى الزوج المضروب، فقالت له أنا مش قلت انكشحوا بره؟!

كان يريد أن يقول لها أنا جوزك لكن آخر قلم كان لسه تأثيره شغال..

انسحب هذا التعيس إلى الخارج وناديت الممرضة لتحضر الكشف فقالت المعلمة:

- لزومها إيه السيستر تدخل علينا في الكشف، أصل أنا بتكسف قوي يا نصور!!

"صلاة النبي أحسن.."

(٩)

أم هدير تستاهل النحت

هناك مرحلة من الحكمة تجعلك نجمًا في عيون الكثيرين رغمًا عن أنفك أنت.

بعد سماع الجملة الأخيرة من أم هدير ابتسمت ابتسامة العقلاء وشكرتها بأدب كانت غير قادرة على استيعابه، ثم قالت:

- هو أنا لازم أخلع لبسي كله؟

قلت لها بصرامة وأدب:

- لا مش مهم خالص ممكن نحدد بدون كشف الجسم بزيادة.

الكشف لم يتجاوز دقيقة واحدة، رجعت بعدها إلى المكتب وبدأت أناقشها، فقالت في هدوء:

- هو إنت دكتور بتاع إيه بالظبط؟ قلت لها:

- أنا جراح تجميل..

قالت فاهمة وحياة حلاوة كسوفك اللي طالع من عنيك ده، قلت لها:

- دا مش كسوف خالص، الطب مهم يبقى فيه حياء.

ضحكة هزت العمارة الدايبة الآيلة للسقوط، ثم قالت:

- إنت شكلك متربي قوي مش زي الرجالة الكسر اللي نعرفهم دول، ثم أخذتها الجلالة لتسألني:

- ألا قولي يا دكتور.. إنت عمرك ما حبيت واحدة من الغلابة اللي زينا؟!

قلت بخوف وأدب ورجاء أن يمر اليوم على خير:

- كلنا عباد الله الغلابة.

وضحكة ثانية ناتجة عن عمل السيجارة الباك فاير أسقطت جزء من دهان السقف وقالت عليا الطلاق من النطع اللي بره ده العيشة مع واحد زيك تطول العمر

وخاصة لو زيك كده.. طبيب جراح قلوب الناس يداويها..

باقي على الدموع همسة وقصة الحياة رمتني ع المر، ولو كانت الدنيا مش دنيا كنا لا حرقنا الوابور، ولا سلكنا الفونيا..

استجمعت رباطة جأشي وقلت لها:

- إنتي مش محتاجة أي نحت يا ست البنات.

قالت "الله" والنبي تقول تاني كده "يا ست البنات"، قلت لها:

- يا ست الكل إنتي جسمك من غير حسد مظبوط، فقالت بهبل:

- يعني عجبك!!

واضح إن السيجارة كان فيها حشيش، احنا قدام حالة من الهلوسة..

دخلت السكرتيرة لتخبرني إن عم شقاوة وصل بره ومعاه الإشاعات المطلوبة ومعاه شاب في جيبه فرد خرطوش..

"صلاة النبي أحسن"

وعلى غير ما يمكن تخيله؛ ولأخرج من هذه الورطة الغريبة، طلبت من المعلمة أم هدير في نوع من الاستجداء ألا تغادر هي والسادة المجرمين العيادة لأن فيه عيان بره اسمه عم شقاوة، والبنت بتقول إن معاهم فرد خرطوش..

تغيرت ملامح المعلمة وأخرجت صوت إباحي من حلقها هز شقاوة بجلالة قدره بره، وقالت للسكرتيرة التي أصابتها الصدمة مما يحدث:

- مين اللي جاي ده ومزعل الباشا!! دخلي النطع دا هنا أنا مش خارجة، ولا يمكن أسيب الدكتور لوحده..

ثم فتحت الباب وقالت:

- واد يا شكل!! دَخّل اللي اسمه شقاوة ده لوحده، وثبت الواد اللي شايل فرد الخرطوش وحطهوله في ****.

ثم نقلت الكرسي لتكون بجواري أثناء الكشف على عم شقاوة..

لا بقى "صلاة النبي أحسن" بجد..

(١٠)

المعلم تقاوي

بعد أن نقلت الكرسي بجواري وقفت أم هدير وسندت ضهرها على عمود داخل الحجرة مواجه للباب لتلقى المعلم شقاوة وهو داخل بدري بدري.

وكانت أم المفاجآت.. المعلم شقاوة أول ما شافها خر على ركبتيه صريعًا، وباس إيدها وقال:

- المعلمة حسنات بذات جلالة قدرها هنا!!

وأنا أنظر إليه شامتًا وأقول في نفسي:

- أسد عليا وفي الحروب نعامة!!

قالت أم هدير -اللي طلعت اسمها المعلمة حسنات ملكة الصنف ووزيرة الكيف:

- ينيلك يا أبو سعيد.. وإيه حكاية شقاوة دي! إنت جاي يا تقاوي راجل تعمل فيها دكر على ابن الناس -والتفت إلى مكملة- الحليوة ده!!

كان المعلم تقاوي الشهير بشقاوة يتضاءل أمامها حتى صار كتكوت مبلول، وراودتني نفسي الآثمة أقوم أرقع صداغه قلمين، لكن العقل زينة والطيب أحسن،

وأم هدير مش موجودة دايمًا، ودا زمن ثورة..

لكن أنا قلت ألبس تقاوي في الحيطة من باب الاحتياط ، قلت له عملت الإشاعات علشان عملية التجميل يا معلم شقاوة؟!

كان تقاوي يتوارى من المعلمة من سوء ما سيحدث، وضحكة خليعة ماركت حتى أنت يا عرة الرجالة جاي تعمل تجميل!!

وتقاوي يتلاشى أمامي وأمام حسنات ملكة الملذات ويقول كلمة ويتهته:

- تجميل إيه بس يا سعادة الباشا دا أنا بقول تكونش لها علاقة بالصداع يعني؟

والمعلمة تقول بلغة ملكة الصنف تكونش عايز تتجوز على الغلبانة أم سعيد؟!

فكرت أجيب أَجَل شقاوة بضربة واحدة وأخبرها عن أم شعر أصفر اللي كانت معاه من يومين، وأسيب الباقي للظروف وأم سعيد والمعلمة حسنات، لكنني قضيت عليه

بابتسامة معناها "انت عندك بُعد نظر يا معلمة".

عم شقاوة اللي بقى تقاوي أصبح حلمه الوحيد إنه يمشي، وإن المعلمة تِكْفِي على الخبر ماجور، لكن المعلمة كانت طلبت أم سعيد وقالت لها:

- مش عايزه من أبو سعيد حاجة أصل أنا قابلته هنا في .....

وأبو سعيد يضرب على صدره ألا تقول المعلمة الحقيقة، فأكملت المعلمة:

- معاكي أهه يا أم سعيد..

شقاوة طلع زوج نقاوة.. عامل فيها مجرم على المحترمين لكن من عينة أبو كف على قفاه اللي قاعد في الصالة برة..

سألتني المعلمة:

- عايز من شقاوة حاجة يا سيد الدكاترة؟!

وقبل أن أرد رد شقاوة:

- ربنا يخليكي لينا يا معلمة، ويخليك يا سيد الدكاترة.. وانسحب كجرو مبلول.

قالت المعلمة وهى تهم بالخروج ما تشغلني معاك يا دكترة.. أهو آخد بالي منك، وأحميك من الأشكال الرمم دي.. ابتسمت وانا أشكرها قائلًا:

- متشكر جدًا يا معلمة، إنتي مقامك كبير عندنا.

فقالت بنظرة تخدش الحياء:

- متقولش يا معلمة.. قولي يا حُسنه..

عم الصمت المكان وخرجت المعلمة، لكنها قالت وهي على الباب:

- مقلناش الاستشارة إمته؟

"صلاة النبي أحسن".

(١١)

العار

على باب الطوارئ.. وقف الأب يصرخ أنا عايزها تنزف لحد ما تموت..

محدش هيعالجها..

منذ ساعة تقريبًا تدخل الفتاة هُدى إلى طوارئ المستشفى في صدمة ناتجة عن نزيف داخلي، دكتور الطوارئ يجرى الكشف عليها، ثم الأشعة والتحاليل بعد الإسعافات الأولية..

الأب منهار تمامًا، يأتيه النائب ليقول له:

- مع الأسف الحمل كان خارج الرحم، وحصل نزيف داخلي ولازم نعمل جراحة عاجلة، لاستئصال الأنبوبة اليمين وربما المبيض، ومحتاجين موافقة الزوج بسرعة..

صرخ الرجل صرخة مدوية:

- حمل إيه يا أولاد الكلب!! أنا بنتي أشرف من الشرف.. بنتي أصلًا مش متجوزة، دي لسه بنت بنووت.

الصدمة.. التكذيب.. الاكتئاب.. الإقرار بالهزيمة.

كان الرجل يتقلب في جمر الوحل فيما يبدو للناظرين، أنا الآن في استقبال المستشفى ومعي ملك النساء والولادة فيها مازن حبيب قلبي، قال مازن:

- هنعمل إيه الراجل بيقول مفيش إقرار، والبنت هيموجلوبينها وصل أربعة، البنت دي هتموت خلال ساعات.. قلت لمازن:

- احنا مش محتاجين موافقة أبوها، أنا وإنت أساتذة والقانون يسمح لنا في هذه الحالات التدخل دون موافقة الأهل لإنقاذ الحياة.. نكتب تقرير حالًا ونحضر دم بسرعة، وأبوها الأمن يمسكه علشان نخطف البنت للعمليات.

ليس لنا دور أن تعاقب على خطيئة، نحن دورنا أن ننقذ حياة الناس..

خلية نحل تعمل وخلال دقائق تم إنقاذ حياة الفتاة.

كانت الأحداث تشغلني بعدها وأنا أنظر إلى رصيدِ من الستر قد انتهى، أو لربما الأقدار تريد أن تغسلها من الذنب بماء الفضيحة.

لقد ذهبت إلى طبيب تحت السلم لتحكي له أنها حامل، فأجرى لها عملية كحت دون إجراء أشعة تلفزيونية ليكتشف أن الحمل خارج الرحم، وليكون هذا الوضع المأساوي على شقيه الصحي والإنساني.

لقد تم إنقاذ حياتها، لكن شيئًا آخر كان قد تلوث من قبل..

الأب في حالة غير مفسرة لكنه مضطرب حقًا، طلبت من التمريض والمساعِدات أخذ الحذر، وطلبت من واحد من أفراد الأمن أن يتواجد أمام حجرة الفتاة في الدور التاني بالمستشفى، شرحت للجميع احتمالية أن يقوم الأب بقتلها في غفلة من الجميع..

وعدت إلى بيتي وهذا الحدث يذكرني وأنا طالب في العام ٨٩، بأول حالة حمل خارج قانون الشرف وكيف أنني لم أنم ثلاثة أيام -وهى حكاية تستحق السرد لاحقًا.

كنت أرى يد القدرة تعمل بما لا نعلم، إن كشف ستر العباد إما عقاب لسوء أدبه وتبجحه، أو ربما رحمة ترد العاصي إلى حظيرة الإيمان مقيدًا في حديد التوبة.

في اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى، وقلت من باب الخير اطمئن على الفتاة، وأن والدها لم يقتلها في الليل.

وجدته جالسًا على كرسي أمام باب حجرتها، يدخن سيجارة الندم، وصوت عال قادم من الحجرة.

دخلت لأجد ستة شباب في عُمر الفتاة يتبادلون الضحك والنكات، والفتاه في غاية الانشكاح والسعادة، ولما سألت مين الشباب دول قالت وقالوا جميعًا:

- أصدقاء هدى..

"صلاة النبي أحسن".

(١٢)

والطريق.. جريمة قتل

في المستشفى ومديرها حبيب قلبي دكتور جاد المولى، الإذاعة الداخلية تنادي:

- الدكتور عبد الناصر النجار.. الرجاء التوجه لمكتب دكتور جاد المولى.. صوت رضا أو بيومي -وكلاهما أصدقائي- يكرر النداء.

أذهب إلى مكتبه ليقول لي:

- جهز نفسك علشان تطلع الإسماعيلية دلوقتي، فيه جريمة حصلت هناك، واحد رمى مراته الحامل في شهورها الأخيرة من الدور الخامس، وهي فاقدة للوعي

وعايزك تقيم الحالة، ولو تقدر تنقلها معاك إسعاف مُجهز هاتها وتعالى.

كانت الساعة الثانية عشر ظهرًا وأنا عندي ارتباطات تجعلني غير مهيأ للسفر المفاجئ، أنهيت بعض المسؤوليات المنوطة بي آنذاك، ومضى ساعة ونصف لا معنى لهم في الحقيقة إلا أن الأقدار تحتفظ بي لحدث آخر..

نداء من بيومي عبر الهاتف الداخلي كلمة مبهمة المعاني "MRCP"وهي كلمة سر بيني وبين بيومي.

اتجهت إلى مكتبه وقد لبست بدلة كموني وتحتها قميص زهري وجدته يتحدث لأحد الحضور -وكان اخو السيدة المصابة، أخبره معاك دكتور عبد الناصر، ركبنا سيارته الهيونداي الفضي وانطلق.

المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي أرى مؤشر السرعة يصل إلى ١٨٠ كيلو في الساعة، حاولت جاهدًا أن أهدئه قائلًا:

- مفيش حكمة نموت كلنا في الطريق واحنا رايحيين ننقذ حد، لكنه لم يكن يسمعني.

على بعد حاجة وعشرين كيلو من طريق القاهرة الإسماعيلية كانت الأقدار تستدعيني لحادث مروع، أتوبيس نقل عُمال خاص بأحد المصانع يصطدم بسيارة نقل محملة باسطوانات أكسجين، قلت له:

- أقف بسرعة..

نزلت أجري ناحية المصابين، كان السائق قد فارق الحياة نتيجة تهشم رأسه باسطوانات الأكسجين، المصابين حوالي عشرين، فيهم خمس حالات تحتاج إلى إنقاذ سريع.

إلى جانب الطريق رجل مسُن يصرخ:

- قلبي.. قلبي.. أنا عندي الشريان التاجي.. أنا هموووت.

صرخت في وجهه بعد أن اطمئننت عليه قائلًا:

- خد نفس عميق واهدى، وقلت لأحد الشباب:

- هات أسطوانة أكسجين وافتحها جنبه، إهدى كدا يا حاج وخد هواء نضيف إنت كويس.. اطمئن الرجل بوجودي وإن حالته مطمئنة وهيعيش بإذن الله.

المصابين كُثر وفيهم كسور أطراف، قلت للشباب:

- عايز أي قطع خشب أعمل بيها جبيرة للناس اللي أطرافهم مكسورة.

في دقائق جمعوا من صحراء الطريق كومة خشب عظيمة، لكن الجميل لما قلت لهم:

- هاتوا ستارة من الأوتوبيس وقطعوها سيور علشان أثبت بيها الكسور، الحقيقة كان طابور من الشباب كل واحد في إيده ستارة بيقطعها، وانكشفت سوأة الأوتوبيس، وأصبح عاريًا تمامًا.

وصلت سيارات الإسعاف لأضع فى كل سيارة مصاب ومعه ورقة قد كتبت فيها التشخيص المبدئي.

جثة السائق مغطاه بالجرائد -لا أعلم من أين تظهر الجرائد فى مصر حالة وجود جثة، تحس إن متلازمة الموت على الأسفلت هي طبقة الجرائد.

وقفت أغسل يدي بماء أحضره الشباب وشكروني.

لأدرك لحظتها أن كل التأخر والخروج في هذا الوقت بالذات كان لإنقاذ هؤلاء خاصةً، أما التي خرجنا من أجلها فقد علمنا أنها وافتها المنية قبل أن نصل إليها.

إن للأقدار حسابات معقدة فوق قدرة عقولنا جميعًا، وإن يد القدرة ترتب أحداثًا، وتوزع أدوارًا لا نعرفها في حينها، فإذا أردت أن تكون عبدًا ربانيًا فأحسن الظن بربك وقدره ولطفه فإن في كل حادث عظيم.. لطف الله الأعظم..

(١٣)

بالعربي Face off

عامي الثورة مليئين بأحداث غريبة هذه واحدة منها..

كان فيلم "face off" قد تم عرضه في التلفزيون، وكانت أحداثه تدور حول فكرة نقل وجه شخص إلى شخص آخر..

كنا في لقاء جماعي على أحد المقاهي، وكان بين الحضور رجل أعمال -فيما يدعي- سألني قائلًا:

- هو ده ممكن؟؟!

اتسعت حدقتا عيناي وأنا حين يحضر الكلام في جراحات التجميل والتاريخ والدين وبعض الأدب والشعر، تجدني شخص آخر، وتحس أنني أحكي حكايات أبو زيد الهلالي.

اعتدلت في جلستي وقلت له أنني منذ سنوات طويلة جدًا شرحت لمساعدتي أنني أفكر في نقل وجه، وسوف أبدأ ذلك في القطط، وسأستخدم قطة بيضاء وأخرى سوداء لنقل وجه هذه إلى تلك.

ثم أخذتني الجلالة لأحكي كيف أن جراح التجميل يستطيع قولًا واحدًا أن يغير شخص إلى شخص آخر تمامًا، وكيف يمكن أن نغير

حجم عظام الجمجمة حتى أن الشخص يبدو وكأنه شخص آخر حتى أنه تحت أجهزة الكشف بالأشعة السينية يبدو شخص آخر بالفعل..

وقد كنت صادق القول فالتغيرات التي طرأت على جراحات التجميل في السنوات الأخيرة في الحقيقة مذهلة.. سأل الرجل باهتمام:

- معقول تقدروا تعملوا كل ده؟! قلت له: نعم..

فسألني وقال:

- وهل ممكن تعملوا حاجة في البصمات؟!

ضحكت من قلبي وقلت له:

- الناس بيحرقوها بمية نار، وضحكت أنهم جُهال، فقال لي:

- وإنت عندك فكرة تانية؟

في مثل هذه اللحظات يمكن أن أُبدع فوق ما أتخيل أنا شخصيًا، كانت ملائكة الإبداع وخلفها سرب من الشياطين تطوف حولنا..

قلت له ننقل بصمات اليمين في الشمال والعكس، وأشياء أُخر، وشرحت له الفكرة من الناحية العلمية، كل هذا الإبداع وليد اللحظة، لكنه ممكن علميًا بلا أدنى شك..

تطرق الحديث عن العلم وكأننا جلوس في فلك مجرة أخرى، وانتهى الحوار، وذهب كل منا إلى بيته.

لكن المفاجأة كانت في اليوم التالي عندما جاءني هذا الرجل حاملًا حقيبة كبيرة جدًا، وجلس أمامي قائلًا:

- تاخد كام وتعمل لي العملية؟ سألته:

- عملية إيه؟ قال:

- نقل البصمات من الإيدين، أنا مش عايز غير بصمة الإبهام بس. شعرت أنني أمام كابوس في فيلم لأجاثا كريستي.

كنت خائفًا جدًا، الرفض هو قراري المُطلق، وحقيبة الأموال لم تهز فيّ شعرة واحدة، لكن ما هذا الذي أسمعه؟

استغرب الرجل من رد فعلي جدًا، فالعملية لا تُمثل عملًا فذًا بالنسبة لي، وسوف أُجريها في ساعة واحدة أو أقل، والمبلغ المعروض أقوى في رأيه من أن يُرفض..

سألته باستغراب:

- عايز ده ليه؟! فأجاب قائلًا:

- والله انا ما ورايا أي جرائم، ولو عايز أجيب لك فيش وتشبيه قبل العملية أجيب لك، لكن أنا ماضي وباصم على ورق يساوي فوق

العشرة مليون جنية، وعايز أحرق قلب صاحبهم؛ لأنه خاني وأخد مراتي واتجوزها..

عم الصمت المكان وقلت له:

- احنا مشفناش بعض، لا أنا أعرفك ولا إنت تعرفني، ولا عمرك دخلت عيادتي.

وناولته الملف الذي كتبت فيه السكرتيرة اسمه فأخذه وانصرف..

(١٤)

التكبير خسرنا كتير

عمليات التجميل لها صفات خاصة وهذا واضح من اسمها، فهي عمليات الهدف منها رفع مستوى الجمال البشري إلى مرتبة الحلم.. ولكل واحد حلمه في الجمال،

وللنساء أحلام أعلى من الرجال..

جمال الوجه والأطراف وتناسق الجسد في الشكل الحلم، لكن عملية تكبير الثدي، هي العملية ذات الرونق الخاص عند المرأة.

وفي التكبير نستطيع أن نحكي ألف حكاية حقيقية بداية من نورا بتاعة البنادورا، إلى أم هدير ملكة التحرير.

جاءت ومعها زوج من النوع المترهل، طلبت إجراء عملية تكبير ثدي، شرحت لها العملية، وهي عملية بسيطة تتم في حوالي نصف ساعة وبعدها تتحول الصورة إلى الحلم.

عرضت عليها الاختيارات، فاختارت الاختيار الأروع، الزوج الباهت هذا لا يشارك ولا حتى بالكلمة أو الرأي، ناهيك أيضًا عن المال،

اللهم قوله عند سماع التكلفة مش غالي كده؟! ما هم كده كويسين، يعني لزومه إيه؟

وهي تنظر إليه بنوع من الإهمال أنا غير قادر على فهمه، لكن الحكمة علمتني أن أرضًا ليست أرضي فالحرب فيها خاسرة.

دخلت العمليات وعملت العملية وكانت النتيجة مبهرة، هي سيدة في منتصف الثلاثينات وجميلة الهيئة، لكن ضمورًا بعد الرضاعة أصاب الثدي، فكان التغير هو تنفيذ الحلم وتحويله إلى حقيقة.

مضى شهر والسيدة تتابع بالعيادة وهي فرحة، لكنها فرحة فيها انكسار غير مبرر إلا أنها ربما تسمع كلمات غير جيدة من الزوج أو ربما لا تسمع إطراءً، لكن بعد ذلك كانت سعيدة وكان الرجل يأتي معها مهتمًا.

وفجأة وبلا أي مقدمات قالت المرأة:

- أنا لازم أشيل السيليكون..

كنت مذهولًا من الطلب خاصة أن النتيجة رائعة، وهي كانت سعيدة بها جدًا، وليست من النوع المريض بالوسواس، فلابد أن هناك تفسيرًا آخر..

جاءت وجاء معها، وفاجأه الطلب وقعد يولول:

- ليه تشيليهم؟! دول كده كويسين.. طب دا متكلفين.. هي بعزقة فلوس وخلاص؟!

نظرت إليه نظرة أفهمها جيدًا ملخصها إنت مش راجل، وقالت بأدب:

- فلوسي وأنا حرة فيها..

حاولت جاهدًا أن أُثنيها عن طلبها لكنها أصرت إصرارًا غير مبرر - فيه حاجة حصلت لكنها غالبًا كارثة.

دخلنا في اليوم التالي غرفة العمليات وأنا في قمة الضيق أن مثل هذا الذي صنعته يضيع سُدى.. فأنا أعشق عملي ولا أتخذه مهنة بقدر ما هو فن أسعد به.

ماذا حدث حتى تمحي هذه اللوحة الجميلة؟!

كان باديًا على وجهي الغضب على غير عادتي فأنا أحب الغناء في غرفة العمليات، نوع من الدندنة بكلمات ربما غير مترابطة لكن هكذا أعيش في غرفة العمليات وقد رأتني يوم العملية الأولى.

قالت السيدة من باب أن تعتذر لي:

- أنا آسفة يا دكتور إني هشيلهم، لكن حصل حاجة مش ظريفة وأهانتني..

سألتها: ما هي؟

قالت وأنا فايته من على القهوة اللي جوزي بيقعد عليها صاحبه وقف من بعيد وبص ناحية صدري وقال:

- تسلم إيد الدكتور اللي كبرهم فعلًا..

البغل جوزي حكى لأصحابه على القهوة!!

(١٥)

التكبير علمنا كتير

وهناك أهداف خفية لا يعلمها إلا صاحبها، أما نحن فدائمًا نرى قشرة الأشياء ونظن بكل جهل أننا عالمون.

-أنا عايزة أعمل عملية تكبير بكرة يا دكتور، لازم بكرة عندي مناسبة مهمة جدًا يوم الخميس.

النهاردة الأحد يا أستاذة ومش عادي يكون فيه مناسبة الخميس، إنتي طبعًا عارفة إن التكبير محتاج وقت علشان إلتآم الجرح بدون أي ضغوط، حضرتك فهماني؟ ولا أعمل إيه؟!

قالت:

- أيوه طبعًا فاهمة، وإن شاء الله هيكون فيه حرص من الطرفين ألا يحدث ما يخل بالعملية..

واضح إن الكلام من طرفين ليسو على نفس خط السير خط الباجور – سان جيرمان..

شرحت العملية بكل تفاصيلها، واختارت السيدة المقاس الذي تحلم به، وفي اليوم التالي تمت الجراحة..

الشكل مبهر جدًا لها، كانت تبكي تقريبًا من الفرحة ثم قالت:

- أيوه أنا أقدر أقعد كده يوم الخميس وأنا مالية مركزي.

أنا في الحقيقة مش فاهم حاجة قوي.. لكنني قلت بوضوح:

- ممنوع اللمس يا أستاذة، الجرح لسه عايز شهر كامل لتمام الالتآم.

ابتسمت إبتسامة خبيثة قلت بعدها سترك يا رب..

في يوم الخميس الساعة ١٢ مساءً رن هاتفي لأجدها هي المتصلة ولأسمع صوتها تصرخ وأنا مش فاهم، وكان كل الذي يدور في ذهني:

- منك لله إنتي وهو.. الجرح أكيد إتفتح.. أنا قايل ممنوع اللمس.

صوتها كان فرحًا جدًا على غير المتوقع، وأنا مش فاهم أي حاجة كل اللي أنا فاهمه كلمة "باركلي يا دكتور" إنت أحسن دكتور في الدنيا.. وبعض الدموع.

وأنا نجحت وعملت اللي نفسي فيه.

أغلقت الهاتف وأنا حائر في الحكاية ومُحرج أسألها، لكن أهم حاجة انها مقالتش إن مع ما حدث وهي سعيدة به، الجرح فتح ولا السيليكون خرج..

وجاءت يوم السبت قمرًا تضيء سماء الكوكب، فعلًا عروسة..

عروسة سعيدة جدًا.. هي في ثلاثينات العمر، بشرتها خمرية طولها يتجاوز ١٦٠ سم، أضف إليهم طول الكعب يعني بقينا ١٧٠ سم، في كامل أناقة العرائس..

مبتسمة فرحة تُشعرك أنها فراشة طائرة، وأنا أقول في نفسي الحمد لله إني قدرت أصنع هذه السعادة لأحد.

جلست أمامي والسعادة تقفز من عيونها وقالت:

- مساء الهنا على عيون أعظم جراح في الدنيا.. قلت:

- مساء الخير يا أستاذة.. ربنا يتم سعادتك.. سألتني:

- هو أنا ممكن أشرب سيجارة؟

قلت لها:

- لا مانع -رغم أنني لا أحب ذلك، لكنني أشفقت أن أكسر فرحتها.

قالت كان يوم الخميس فعلًا يوم العمر، قلت في نفسي "اسمها ليلة العمر لكن مش مشكلة، المهم الجرح سليم".. أكملت قائلة:

- كنت قاعدة فرسة في القاعدة..

الكلام كده بدأ يقلقني.. فرسة!!

أتمت قائلة:

كنت لابسة فستان أبيض مفتوح من عند الصدر -"صلاة النبي أحسن"- وهو شافهم من هنا واتجنن..

- صلاة النبي أحسن كمان مرة- وقال لي:

- علشان خاطري.....

أنا لم أعد أسمع الكلام، إحنا كده رايحين في منطقة أعراض..

أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة وقالت وهي سعيدة:

- لو كنت شفت الذل اللي في عنيه وهو بيتحايل عليا!!

- "صلاة النبي أحسن".. هي حصلت يتحايل وفتحة الفستان!! سترك يا اللي بترمي سترك ع الولايا..

- يااااااه.. إنت رديت لي حقي وكرامتي وأنوثتي يا أحلى دكتور في الدنيا..

قلت لها:

- ممكن من فضلك تفهميني هي كانت قعدة إيه بالظبط اللي بتحكي عنها دي؟! والراجل اللي شافهم وكان مذلول ده مين؟!

فقالت:

- كانت قاعدة الطلاق من جوزي اللي عايرني بيهم في يوم وقال لي "أنا مش عارف إنتي رايحة ولا جاية؟"

باركلي يا دكتور.. أنا اتطلقت بكرامتي..

(١٦)

وكان التكبير أول التذكير

كان اختيار التجميل قرارًا رغم أنفي -ذلك التخصص الذي عشقته حد الثمالة فيما بعد- فرئيس القسم الذى كان يكرهني رفض أن أدخل تخصص أوعية دموية

واختار لي التجميل كنوع من العقاب..

هكذا أقدار الله تسير.. يختار لك ألد أعدائك ما تكتب لك به الأقدار كل الخير.

كنت قلقا من الحلال والحرام في التخصص وذهبت إلى الأزهر لأطمئن، لكن الأقدار تسوق إلى الإجابة.

العيادة الخارجية للمستشفى وأنا مدرس مساعد حديث التعيين، مريضة من أطراف الجيزة تسأل عن علاج كيس دهني صغير بجوار الصدر، عمرها حوالي عشرين سنة، تلبس جلباب أهل الريف.

متزوجة منذ أن بلغت المحيض ومعها من البنين أربعة وثدييها قد أصابهما عطب الرضاعة، هي عشرون عامًا أما ثدييها ففي عمر السبعين.. سألتها:

- مش بتفكري تعملي تكبير؟ قالت:

- ياريت -وكأنها وجدت المصباح، وكأنني علاء الدين.

إنه حلم عمرها التي لا تعرف له مالًا ولا سبيلًا، دخلت المستشفى الجامعي وكانت أول عملية تكبير أُجريها في بدايتي، العملية بسيطة والنتائج دائمًا رائعة -بفضل الله.

في اليوم التالي وأنا أمر عليها أسألها أخبارك ايه؟

قالت:

- روح إلهي تتستر زي ما سترتني.

توقفت عند الدعاء فقلت لها مازحًا:

- ستر إيه يا ست العرايس؟! الكلام ده يتقال في عمليات تانية وتخصص تاني أنا عايز أفهم إيه الموضوع؟

قالت وهي فرحة حد الجنون وعيونها الخضراء تملؤها الدموع:

- إحنا ناس فلاحين، وجوزي كان ناوي يتجوز عليا علشان شكل صدري بقى وحش بعد الرضاعة.. ثم أعادت الدعاء..

إلهي تتستر يا دكتور عبدالناصر يا ابن .... هي ماما إسمها إيه؟ ضحكت وقلت لها:

- معنديش ماما.. أمي اسمها وهيبة.

تابعت:

- يا عبد الناصر يا ابن وهيبة تتستر دنيا وآخرة خدها من قلب ولية غلبانة إنت رديت لها روحها.

كانت الكلمات إجابات لموجات الشك والقلق، بعد قليل كانت الممرضات يضعن لها مكياج وكأنها عروسة.

الساعة الثانية ظهرًا كانت الزيارة، زوجها الذي رأى العملية بالأمس وهي خارجة من العمليات، جاي وجايب معاه فاكهة وضحك لها ضحكة ذكرتها بليلة الزفاف

وخدها من إيدها وطلع البلكونة وهو يتبادل معها نظرات العشق، لكن أغرب ما حدث أن الممرضات كن فرِحات بها، وزغروطة جامدة رنت فى بيتنا تلك التي لم تمنع المريضة من الفرحة فردت عليهم بزغروطة أقوى.

خرجت على إثرها من المحاضرة ليراني زوجها ويقول:

تسلم إيدك يا أحلى دكتور في الدنيا، إنت تستاهل ميت بوسة والله، فقلت له ضاحكًا:

- وفرهم يا حاج، إنت عندك جوازة جديدة وهتحتاجهم..

(١٧)

إحنا لازم كلنا نعمل كده

الثانية عشرة مساءُ بتوقيت عيادتي رجل ثلاثيني ومعه فتاتان في عمر الزهور، يعني قول أواخر العشرينات تقريبًا، يسألني عن جراحة بسيطة له بعد أن فقد وزنه بالريجيم، قمت للكشف عليه خلف الستارة نظرًا لوجود امرأتين لا أعرف من منهما زوجته!

فقال بهدوء شيماء مراتي كان رأيها كذا، وأشار إلى السيدة الجالسة عن يساره، قلت في نفسي هذه زوجته شيماء، لكن الأخرى لست أدري من هي؟

لكنه أعقب وأنا أُكمل الكشف، إفتح الستارة يا دكتور عادي، دي شيماء مراتي..

- طيب يا عم الحاج أنا عارف إن اللي على الشمال دي شيماء مراتك، لكن فيه ست تانية على اليمين، ميصحش كده، إنت شبه عاري يا عم الحاج قال الرجل:

- ما هي اللي على اليمين دي شيماء مراتي..

واضح إن أنا كنت فاهم غلط، ودي اللي مراته واسمها شيماء.. برضه لسه فيه واحدة تانية، إيه موقفها؟ فقال الرجل:

- يا دكتور الإتنين دول زوجاتي، والاتنين اسمهم شيماء.

صلاة النبي أحسن.. اللهم بارك.

وقفت عن فكرة الكشف، أنا محتاج أفهم الأول، عدت إلى مكتبي ونظرت لهما قائلًا:

- أنتن زوجاته؟!

قالت ذات اليمين:

- أيوه أنا الأولى.. وشوما التانية.

- شوما مين؟! دي بتدلع مرات جوزها!!

الراجل ده أكيد عامل لهم عمل، واحنا كلنا محتاجين اسم الشيخ، الراجل ده إحنا كلنا لازم نصاحبه ونعرف سر الخلطة!!

- قلت لهم وأنتم إيه حكايتكم؟ يعني بتتعاملوا مع بعض إزاي؟! قالوا:

- إحنا بنحب بعض أكتر ما بنحبه، ولو زعل واحدة مننا التانية بتخاصمه.

إنت يا أستاذ مصري ولا خليجي وسلو بلدكم كده؟!

قالي: أنا مصري ومن دمياط..

صلاة النبي أحسن..

إحنا كمان طلعنا بلديات، لا والزوجة الأولى من دمياط كمان.

قلت في نفسي دي مجرد تمثيلية لزوم شياكات الزيارة، لكن بدأت أُراقب التصرفات لقيت الحكاية جد.. هو فيه كده يا جدعان!!

اللهم بارك..

قالت ذات اليسار:

- دي فطرة ربنا اللي فطر الرجالة عليها، واحنا عايشين سعداء جدًا بكل اللي في الحياة من خير أو شر، إحنا الإتنين صديقات أكتر ما احنا زوجاته.

الحقيقة الفريق ده يفتح النفس للجواز مادام فيه ناس عاقلة كدة يبقى الراجل يتجوز اتنين، ويوتر بالتالتة، ويسبب مكان الرابعة فاضي، أحسن يظهر في الطريق صاروخ لا يصد ولا يرد يبقى مكانه محفوظ..

وطبعًا يجعله عامر..

ولا ننسى أن.. صلاة النبي أحسن..

(١٨)

في لحظات الحفاظ على الحياة

يصبح كل شيء مباح

الواحدة فجرًا في طوارئ قصر العيني العام ٢٠٠٠ -يزيد أو يقل قليلًا- أنا مدرس الطوارئ في هذا اليوم مريض يدخل الطوارئ أثر طعنة سكين نافذة بصدره.. بعض الإسعافات تمت وأشعة على الصدر، على ما أذكر نزيف في العشاء البلوري وغشاء التامور المحيط بالقلب.

حالة المريض تتهاوى ويمكن أن نفقده في دقائق، الوقت المطلوب للعثور على فريق القلب والصدر يحتاج بعض الوقت التي قد تمتد إلى نصف الساعة.

وضعت إصبعي في جرح الصدر لأجده داخل قلب الرجل، ومع كل نبضة يمسك البطين الأيسر على إصبعي في استغاثة منه أن أنقذه، قلت للفريق بسرعة على أوضة العمليات وأنا صباعي جوة القلب قافل الخرم اللي موجود فيه.

الراجل ده لازم يعيش..

محاولة ربما تكون بائسة ويائسة، أبلغت نائب القلب والصدر ساعتها إن العيان هيتخدر، وإذا تأخر فريق القلب والصدر أنا هفتح صدر المريض وهقفل الجرح..

مفيش أي اختيارات.. ولن أسمح بضياع أي وقت، لن أسمح بعمل مكالمات لأساتذتكم، لن أنتظر حد كبير من عندكم، العيان ده هيتفتح صدره على مسؤليتي، وهيتخيط قلبه على مسؤليتي.

دخلنا غرفة العمليات وتم تخدير المريض وأنا إصبعي مازال في قلبه، فى دقائق كان فريق القلب موجود، تم التعقيم ومعه تعقيم يدي، وتم فتح الصدر وتخييط القلب، وتركيب درانق.

وقفت في جانب الغرفة وأنا أذكر حكاية أول جراحة قلب في الروايات الطبية مريض في صدره سكين وكانت الكنيسة تحرم لمس القلب لأنه العضو المقدس

لكن جراح القلب قال لمساعدته:

- شدي السكينة من القلب أول ما أقول أنا جاهز.. وهوب غرزة برولين في القلب المجروح، ونجا أول مطعون في القلب في التاريخ.

تمت العملية بنجاح لكن المريض كان قد نزف كثيرًا قبل الوصول، تم نقله إلى الرعاية المركزة لمحاولة استكمال إنقاذه، عدت إلى البيت وأنا قلق عليه.

في اليوم التالي ذهبت إلى رعاية قلب وصدر لأجد المريض الذي كنت أتمنى له النجاة، وقد فعلت ما في وسعي تحت مسمى "الشاطرة تغزل برجل حمار"،

وجدته يسير في طرقات الرعاية وبجواره إخوته فلما رآني صرخ من الفرحة واحتضنني وقال وهو يبكي:

- أنا مديون لك بعمري كله.

هناك بعض اللحظات تحتاج إلى حكمة غير تقليدية في التصرف وتحتاج إلى تفكير خارج الكتاب التقليدي، صحيح اللي عملته مش كلام الكتاب بالحرف؛ لأن الكتاب مكتوب فيه مستشفى ٩ نجوم ومجهزة لمثل هذه الحالات، لكن الإصرار على الهدف هو طريق الوصول إلى النجاح.

(١٩)

توحة المجروحة

ليلة رأس السنة دائمًا تكون فيها العجائب في حوادث المستشفيات، وهذه الليلة كانت خاصة جدًا، فهي الليلة الأخيرة في القرن.. وغدًا يبدأ قرن جديد..

ومادام الأمر فيه قرون، يبقى لازم يظهر أصحاب القرون..

فتاة ومعها ثلاثة شباب، الفتاة لابسة من غير هدوم بيبي دول أحمر وأطرافه دهبي، وشابان بما يشبه البوكسرات، ورجل عِره لابس جلابية عِره شبهه.

وأمة لا إله إلا الله بتساعد في الاستقبال، الأطباء على كل تخصصاتهم، والامتياز النبطشي، واللي روح بعتوا جابوه، والعمال والفلاحين، وأعضاء مجالس الحياة الإنسانية..

كله جاي يجامل ويُحيي تلك التي حضرت بالبيبي دول.. وعلشان الأمانة كانت لابسة جزمة بكعب عالي، ومحدش يسألني ليه؟!

خير يا شباب فيه إيه؟؟!

قالوا إنها طُعنت بالسكين لما اختلف الشباب مين هيرقص معاها الأول -ومشيها يرقص.

الشباب اتخانقوا، وطلع واحد منهم المطواة فحاولت تهدي الموقف لأن قلبها كبير فكان جزاءها أن تصاب هي بالطعنة.

حاولت الفتاة أن تخلع الحذاء وأثناء انثناءتها لذلك، صرخت العاملة فيها أبوس رجلك بلاش توطي، وحوالي ١٠٠ رجل من الشباب الواعد المساعد حاولوا يقلعوها الجزمة..

الكشف الأولى مطمئن على استقرار نسبي للحالة، طعنة في الجهة اليسرى من البطن تحت الضلوع، نقلت المريضة إلى غرفة العمليات لعمل ما نسميه استكشاف للجرح لمعرفة إذا كان نافذًا أم غير نافذ!!

كانت القطة في حالة قلق واسترها يا رب.. وقالت بوضوح مخلوط بحاجات تانية:

- إوعى تكون هتفتح بطشني.. دا أنا أروح فيها.. كله كله إلا الجروح.. دا لقمة عيشي يا دكترة..

الشابة صحيح عشرينية، لكنها دخلت الكار في ابتدائي على يد خالها ذلك النطع الواقف بالخارج ولابس جلابية الخنزير.

الفحص أثبت أن الجرح غير نافذ لداخل البطن، وعليه قمت بعمل غرز شبه تجميلية للجرح خرجت الفتاة من غرفة العمليات سليمة

معافاة، لأجد الثلاثي الفاجر مع أمين الشرطة لعمل محضر لكن الفتاة كانت قد اطمأنت فقالت -بعد أن لقنها خالها الكلام:

- دا كان هزار والله وأنا بأشد السكينة علشان نقشر التفاحة سوا جت غصب عني في بطني.

كده مفيش جريمة.. ومفيش مجرمين.. وحتى العيال اللي في البوكسرات هيمشوا.

كنت آنذاك خارج من غرفة العمليات لأكتب العلاج، وسألت عن الاسم ثلاثي فقالت:

- توحة نجمة العشريني وضحكة من نوع رخيص بعدها فقلت كعادتي:

- العلاج ده عبارة عن مضاد حيوي ومسكن، هناخده الصبح وبالليل يا أستاذة توحة.

ضحكت توحة ضحكة فاجرة تبعها ضحكة من الشعب العظيم اللي جاي ورا توحة يشد من أزرها.. قالت توحة وهي خارجة للعودة للنضال في سبيل لقمة العيش

مع التفاتة وابتسامة وبوسة خطف على الهوا:

- والنعمة إنت دكتور مز ولأجل خاطر عيونك لأغير إسمي عند كل الشباب للأستاذة توحة المجروحة..

(٢٠)

خطبة الجمعة

زمان في بلدنا الزاوية كانت مفيهاش خطيب، ويوم الجمعة واحد عادي طلع يخطب فخدته الجلالة واندمج وهو بيخطب وعمل زي فريد شوقي في فيلم صاحب الجلالة أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وتريدون أن تدخلوا الجنة؟!!

يا أخي ***

ولا بلاش.. وانتهت بأنه نزل من على المنبر وخد علقة مووت..

صديقي علاء عتمان الرجل المبتسم دائمًا كانت له ضحكة خاصة تكسر حاجز الصوت وتملأ المكان بهجة وضحكته مميزة إلى ما لا حدود، ليس هذا فحسب بل صوت ضحكته عالٍ جدًا..

بيننا حكايات كثيرة حيث أننا نلتقي في المستشفى يوميًا هو برنس الرعاية المركزة والقلب وهو حد كده صعب تعرفه ومتحبوش.

الخلاصة إن أنا وعلاء بيننا حكايات تسمح بالضحك دون أن نتكلم..

بعضها حكايات عن مشايخ قالوا كلام خارج عن كل مقبول في خطب جمعة، وكنت أحكيها له، أشهرها كان الشيخ حسن شحاتة اللي كان بيخطب في المسجد اللي

قدام سفارة إسرائيل، وكانت الخطبة ثلاث ساعات تقريبًا وفيها من الإسرائيليات ما يجعلها ألف ليلة وليلة وفيها من الخروج عن المقبول ما لا يمكن كتابته.

لكنني كنت أحكي لصديقي علاء وهنا بيت القصيد..

يوم جمعة في المستشفى، والمستشفى ملحق بها مسجد كبير ولم يأت خطيب الجمعة ودون الجميع اختاروني لأخطب الجمعة، وأنا والحمد لله قادر على هذا فقد خطبت جمعات سابقات في ظروف مشابهة.

صعدت المنبر وبدأت الخطبة وكنت شابًا أُقلد كل المشايخ الذين أسمعهم -كان هذا الحدث منذ ربع قرن، بصوت الشيخ كشك وكلماته وحكمة الشيخ القطان ودعائه وكأي شاب لابس توب العز بن عبد السلام، ومتخيل إن الناس دي قبل الخطبة حاجة وبعد الخطبة هيتحولوا إلى صحابة.

لكن ها هنا تحدث المفاجأة عييلاااء صاحبي يدخل من باب المسجد المواجه للمنبر وتقع عينا علاء في عيني وقبل أن تطأ قدمه المسجد ينفجر علاء خارج الباب في ضحك مكتووم.. وأنا شايفه..

علاء مجرد أن نشوف بعض بنضحك والمقام ليس مقام ضحك..

علاء مش قادر يسيطر على نفسه وأنا مستمر في الخطبة..

لكن عيني شافت ضحكة علاء مفيش أي حاجة تيجي على بالي من حكايات الشيخ كشك حتى يضحك الجمهور فإن ضحكت فلا ضير..

طيب أحكي لهم حكاية رمش عينه اللي جرحني، وهو رمش عينها موس حلاقة يا ولا؟!!

طيب أقول حكاية ياما القمر ع الباب اللي حكاها الشيخ كشك؟!

علاء جلس على الأرض حاطط إيديه على بؤه وموطي في الأرض وأنا تحولت إلى أي جهة ليس فيها علاء..

هتبقى فضيحة يحكى عنها التاريخ لو عيني جت في عين عيلاااااء..

تذكرت كل هموم المسلمين وكل مواجعهم في كل مكان، افتكرت موت أمي، عملت كل ما هو ممكن لأتماسك حتى أُنهي الخطبة بسلام..

ثم ناديت في الناس أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.. وأقم الصلاة..

صليت بالناس بسور صغيرة وخرجت من المسجد مسرعًا وكان عيلاااء ينتظرني عند باب الطوارئ..

علاء واقع على الأرض من الضحك وأنا مش عارف أفهمه إزاي إنه يهدى علشان الناس متتلمش علينا..

لقد كانت حقًا أجمل أيام..

(٢١)

القرصان

أخذت على نفسي عهدًا ألا يدخل حياتي قرش حرام، ولا أحب في المال شبهة الحرام، لكن قررت أن كل حد يزورني مندوب معمل تحاليل أو شركة أدوية أو مركز أشعة أن أعطيه أمان الكلام حتى تراوده نفسه الأمارة بالسوء وأن ينطق كلمة الشيطان "وطبعا لحضرتك نسبة" هنا تكون بداية الدرس عن هذا المال الحرام..

جاءني مندوب وتكلم، فلما تكلم سألته عن دكتوره جاءتني من شهر تقريبًا فقال لي:

-استقالت.. قلت له:

- الحمد لله.. يبقى نفعت فيها النصيحة، فسألني:

- نصيحة إيه؟

فأخبرته أنه يريد أن يصنع مني لصًا، وليس لصًا فحسب بل لص وخائن للأمانة.. تلك التي ائتمنني عليها المرضى، فإنهم ائتمنوني على أنفسهم وأموالهم وأنت تطلب مني أن أكون ذلك الخائن واللص..

حاول أن يلوي عنق الرواية فحكيت له الروايتين اللتين يلعب بهما الشيطان في رأسه، وقلت له:

- يا ولدي ابيضت اللحية ولم أفعلها يوم كنت شابًا وفقيرًا.

ثم نصحته أن هذا الذي تجري به بين الأطباء ليس بالحلال.. من الآخر أنا مش قرصان!!

(٢٢)

قراءة خارج السرب

زمان وأنا مدرس مساعد وأنا خارج من العمليات في حوادث قصر العيني وقت الفجر، لقيت أهل المريض بعد ما اطمنوا عليه قال أحدهم:

- تعبناك يا باشا.. فقلت له:

- ولا تعب ولا حاجة.. لكن أحدهم قال -بينما يحاول عبد القادر دفعه بعيدا -:

- بالهنا والشفا يا باشا.. على الله الأكل يعجبك!!

لفتت الجملة انتباهي، وحاول عبد القادر عامل العمليات الغلوشة على الكلام لكنني سألت الرجل:

- أكل إيه ال بتتكلم عنه؟!

فنهره عبد القادر وهو ينظر إليه غاضبًا مدعيًا بنظرته تلك إنك كده بتحرج الباشا.. لكنني دفعت عبد القادر بعيدًا، وسألت الرجل بلا غضب عن الأكل الذي يسأل عنه فقال:

- تلاتة كيلو كباب وكفته من أبو شقرة مع شوية طرب وطحينة حاجة كده مش قد المقام يا باشا.

ابتسمت بشده لأني أكيد جعان من طول وقفة العمليات، فاطمأن الرجل أنني لص في هيئة طبيب، وأديني عملت العملية وهو جبر بخاطري بالكباب والكفتة..

كان عبد القادر يذوب كما يذوب الملح في الماء، ويستحق علقة عادل أمام للنادي الرياضي في التجربة الدنماركية..

نظرت إلى عبد القادر فجاء بالأكل من المغارة جوه وهو يلعن أم الرجل شريكة في درجة البؤس الحياتية ويلعنني من أم قلبه..

أعطيت للرجل الطعام وأعطيت لعبد القادر اللي ربنا قدرني عليه، والراجل كان مستغرب جدًا هل أكل أبو شقرة مش قد المقام؟ ولا تلاتة كيلو كباب وكفتة مش كفاية؟!

ثقافة المجتمع.. وقوة القانون.. وسريان العدل وأن يكون الجميع أمام القانون سواء هي التي تُصلح أحوال البلاد والعباد..

قصة الطيار والممرضات ومدير المستشفى والإجهاض دي حادثة لا غرابة فيها..

الطيار متخيل إنه طاير فوق القانون..

وأهل الطيار فاكرين إنهم معاه على الطيارة..

والممرضات شايفين إنه ميصحش كده وقدام الإهانة لازم نلعن لقمة العيش المتغمسة بالذل..

لكن المحمول الملعون صور الحادثة وبقى رأي عام والبلد مش ناقصة..

البلد تعمل القانون في مواجهة خروج الطيار عليه وده صح الصح..

يقولوا حقنا برقبتنا..

لكن النخاسين وبخبرة النخاسة وقليل من معرفة ما يمكن أن يدبر بالليل، يقولوا لهم عادي.. استهدي بالله وقومي إقلعي يا بنتي..

لكن كله وقدرت ألاقي له تفسير إلا وجود الكرباج الذي يذكرني بالراحلة ماري منيب.. وإنتي جاية إشتغلي إيه يا بغلة؟!

(٢٣)
أيام لا تُنسى

في ترقيتي لأستاذ مساعد منذ حوالي ١٧ عام، كان أيامها لجنة الترقية خليط بين أساتذة الجراحة والتجميل ولم يكن التجميل قد انفصل بعد..

وكانت محاضرتي عن التدخل الجراحي لعلاج ترهل الثدي عند السيدات.. وأنا أخدت الموضوع جد جدًا، وقلت أعمل عرض لا يتكرر، حاجة كده شبه كأس العالم الجاي..

اخترت صور لنجوم سينما، وبعضهم وأنا لا أدري أبطال أفلام مش ولا بد..

وحالات قبل وبعد، والثدي المثالي على الجسم المثالي..

وحالة من الإتقان المزعج، والصور الموغلة في الجمال والعري..

كان في اللجنة اتنين أساتذة تجميل، بينما عشرة أساتذة جراحة عامة، وأورام، وأوعية.. وكان العرض العلمي بالنسبة لهم نوع من" الإستربتيز" العلمي وأنا ولا على بالي أصلاً..

المؤتمرات بره مصر كده، وأنا عايز أعمل زي بلدنا ما بتقول: "الشيخ الباتع يسرج نفسه"..

أنهيت العرض وأنا أرى في عيون الحضور مزيج من أشياء مضطربة.. صرخ أحدهم:

- الله ينصرك يا شيخ عبد الناصر..

وقال آخر وهو على قيد الحياء:

- هو فيه كده يا إبني؟!

بينما أقسم أحدهم أن الذي عرضته لم ير مثله في حياته وطبعاً أنا خفت أسأل، قصده على الصور ولا على المحتوي العلمي!!

واتكأ أحدهم على عصاه، واقترب مني، وقبلني من رأسي قائلاً:

- إحنا إن شاء الله لنا الجنة لأن إحنا عانينا هنا قوي..

لكن آخرهم قال:

كده أنا إطمنت لو دخلت الجنة، إذا كان فيه من ده هنا، أومال الحور العين إزاي؟!

ثم أشار إليّ أحدهم من بعيد والدمعة هتفر من عينه، وقال لي:

- الرب يباركك يا ولدي إنت ابن بار بأساتذته...

(٢٤)

العيان الكرييتف رزق

يتميز مريض التجميل بأفكاره الماورائية وأحلامه المُستقاه من السوشيال ميديا ومجتمع فتكات، وعنده خيال ممتع يشبه أفلام الخيال العلمي، لكن طبعًا نسخة الشيف شربيني..

عيانة زي القمر عايزة تحقن كام سنتي دهون في خدها مش دا المهم.. المهم وصفها للموقف..

الشفط بيحصل بمخدر موضعي لكن هي كان لها رأي جميل ووصف أجمل وأنا باشفط، قالت:

- حاسة إحساس غريب!! قلت:

- أيوة.. دا الشفط يا هانم.. لكن مفيش وجع؟!

- قالت:

- لا مش كده حاسة زي ما يكون حاجة بتعضعض جوه.. قلت اعمل نفسك ميت واسكت..

تسكت هي!! مستحيل.. تكمل هي:

- عارف إحساس العضعضة؟

قلت لها:

- طبعًا يا هانم ما هي دي كانيولا الشفط من النوع العضعاض.. بتعضعض الدهون وتشفطها..

تسكت بقى!! مستحيل.. أكملت:

- عارف يا دكتور إحساس الخروف الأضحية؟!

- خير اللهم اجعله خير.. خروف إيه وأضحية إيه يا هانم؟!!

- لا يا دكتور.. عارف لما بينفخوه!! قلت لها:

- إحساس النفخ ده مجربتوش الصراحة، لكن هو حضرتك يا هانم إتنفختي قبل كده علشان تعرفي إحساس الخروف وهو بيتنفخ؟!!

تسكت!! مستحيل. بالتأكيد، أكملت:

- لا طبعًا.. بس أنا متخيلة إحساس الخروف وهو بيتنفخ..

- ما شاء الله عليكي يا هانم، حضرتك كرييتف أوي..

- تصدق إنهم بيقولوا عليا كده في الشغل!!

- مؤكد يا هانم.. كرييتف.. كرييتف يعني.

ثم صرخة قوية ملهاش أي لازمة لأننا خلصنا من زمان، وقالت:

- حاسة إن حاجة راشقة في لحمي.

- إطلاقًا يا هانم مفيش حاجة راشقة، دا إبداع من خيالك بس يا هانم..

مبدعة.. مبدعة..

(٢٥)

الزوجة الهبلة رزق

الثالثة صباحًا في استقبال المستشفى، رجل أربعيني يصرخ شاكي من ألم في صدره، يبدو أنها جلطة قاتلة بالقلب، ومعه زوجته في حالة انهيار تام..

الأقدار لعبت دورها والسيدة تقول:

- دا عمله الطيب هو اللي نجاه أصل أنا كنت هبات عند أختي لكن اتخانقت معاها، وكان قلبي واكلني عليه، روحت البيت الساعة إتنين الفجر فتحت الباب وكان الباب مقفول بالترباس، وسمعت صرخة جاية من جوة.. قلبي اتخلع..

لكن هو زحف يا قلب أمه لغاية الباب وهو بالفانلة واللباس وهو بيصرخ من وجع في صدره واترمى في حضني، وقالي وصيتك العيال لو مت..

وقالي:

- مفيش وقت.. شدي الباب وراكي واسنديني نلحق الطوارئ يمكن يكون فيه أمل.

أبوس إيديكم إلحقوه أنا مليش غيره..

نظر إليها بوجع والدموع تملأ عيون الحضور وقال لها:

- حاسبي التاكسي يا أم ياسين مش عايز يبقى في رقبتي لحد حاجة..

وهي تبكى محترقة من خوف الفراق.. لكن الفراق مكتوب علينا كلنا، ردد هو الكلمات لها، وخرجت لتدفع أجرة التاكسي فقال الرجل:

- الحمد لله ستره غلب ونجانا، ثم مال على أحدنا وقال:

- لما تيجي قولوا إنكم عطيتوني حقنة دوبت الجلطة، وجميلكم على راسي من فوق.. ثم أمسك الهاتف واتصل بامرأة وقال لها:

- نزلتي خلاص من البيت؟ كنا هنتقفش.. ما أنا قلتلك بلاش عندي، أهي لو كانت شافتك كانت قتلتنا إحنا الإثنين..

وضحكة خليعة تهز شاشة الموبايل وصوت يقول:

- دا إنت طلعت شيطان يا مجرم..

عادت البائسة ليقول لها:

- الدكاترة دول جميلهم على راسي، الحقنة اللي أخدتها دي سِحر دوبت الجلطة في لحظة.. الطب فعلًا إتقدم..

وزغروطة حلوة رنت في الطوارئ، وقامت الزوجة ودموع الفرح تملأ عيونها وارتمت على يد الطبيب المنقذ لتقبلها، وزوجها قال:

- والله أنا لازم أبوس دماغكم.. جميلكم على دماغي طول العمر.

فعلًا الزوجة الهبلة رزق..

انصرف الرجل هو وزوجته ونحن جميعًا نقف في ذهول..

(٢٦)

واتقابلنا مرة تانية

مرة أخرى أراها بعد كل هذه السنوات، تركيزي عليها أوحى لها أني متحرش طيب وإن فيه رزق جاي حتى لو مش حلال..

عندها حق تشك فيا فأنا أقف أنظر لها بتركيز، هي وزنها زاد حوالى خمسة كيلو فبقت كيرفي لكنه لم يشفع لها لا عندي ولا عند غيري..

اقتربت منى وابتسمت وقالت:

- بتشبه يا أستاذ!!

قلت لها:

- أنا الدكتور اللي في عمارة قدورة، فقالت بمناغشة شكلك إتغير خالص وبتتقل علينا، قلت لها:

- لا مش أنا اللي تقصديه، قالت مش إنت بتاع التجميل ضحكت وقلت:

- أيوه أنا بتاع التجميل.. قالت:

- تبقى إنت.. اللي علي علي يا عم..

قلت لها:

- إنتي غالبًا بتتكلمي عن اللي في الدور ** قالت أيوه طبعًا هو أنا هنساك ولا أنسى شقاوتك؟!

قلت لها

- لا مش أنا.. الشقاوة كانت في الدور **

لكن أنا الديب الطيب اللي في التامن فقالت مُصِرة:

- جرى إيه يا أبو سمرة!! إنت هتتنكر لليالينا!!

قلت لها:

- أبو سمرة في الدور **

فتحت موبايلها وطلعت رقمه وطلع فعلا بتاع الدور **، اعتذرت بأدب وقالت..

- يمكن نبقى معارف.

شكرتها جدًا، ومددت يدي في جيبي أعطيها مالًا حلالًا بلا مقابل، فقالت:

- مش قلتلك هنبقى أشدقاء، ضحكت بأدب وقلت لها:

- احنا كده إخوات..

ناولتها المال فأخذته وقالت "أحلى إخواتش"

ركبت السيارة وأنا أقول في نفسي، لا شيء تغير..

ربنا مبينساش حد..

البوست القديم ٢٠١٧

(٢٧)

وقالت الضائعة

ربنا مبينساش حد

نزلت من عيادتي بشارع جامعة الدول وأنا متجه إلى سيارتي، كانت تتكئ عليها إيرما لادوس.. شابة في العشرين من العمر أو أقل..

أنا أعرفها جيدًا فهي ترتاد هذا المكان للعمل يوميًا وملامح الوظيفة لا تخفى على عاقل وكنت قد سألت السايس عنها لتكرار رؤيتها فأخبرني الخبر اليقين.

سيارة تطلبها فيها من الشباب ثلاثة، اقتربت وفتحت باب سيارتي لأسمع حوارًا لم أسمعه من قبل..

هم:

- يلا بقى عيب احترمي وقفة الرجالة.

هي:

- مش هاركب غير لما آخد فلوسي الأول هو أنا يعني هجري!!

هم:

- يا بت إركبي عيب الراجل اللي وراكي بيبص مستغرب -أنا هذا الرجل المستغرب حقًا-

هي:

- لا أنا مش هينضحك عليا تاني إنتوا فاكريني مختومة على قفايا.

هم:

- عيب والله توقفي شباب زي الورد كده..

هي:

-٢٠٠ جنيه قبل ما أحط رجلي في العربية، وبعدين أنتم تلاتة.. وكلام آخر لم أتحمل سمعه ولا ذِكره..

أخذت سيارتي ومشيت ذهبت إلى شارع سوريا عند أبو عمار السوري لأطلب طعامًا أواري به سوأة نفسي الجائعة.. ركنت السيارة وجاء الرجل يسألني عما سأطعم، وأنا أخبره بما أريد..

أرى موتوسيكل عليه شابان وثالثهما إيرما التي كانت منذ دقائق في جامعة الدول وخلفها موتوسيكل آخر عليه من الشباب اتنين آخرين، وتنبهت وهي تقول بصوت عالي ربنا مبينساش حد..

افقت على صوت شاب لم يبلغ العشرين يريد أن يمسح زجاج السيارة، أشرت له بيدي شاكرًا معتذرًا، ثم أفقت على أفكاري فماذا سيفعل هذا المسكين!!

الساقطة رُزقت والشاب لابد أن يأتيه رزقه..

وربنا مبينساش حد..

أشرت له أن ينظف السيارة ففرح وبدأ في تنظيفها..

وأنا أنتظر الطعام رأيت رجلا من المطعم يُعطي طعامًا لأمين شرطة يجلس أمام ماكينة الصراف الآلي ليحمي أموال الأغنياء!!!

شكره الأمين وأخذ منه الطعام، لم يأكله لكنه تصدق به على امرأة تحمل طفلًا تجلس على سلم المكان..

قلت في نفسي أحضر طلبًا للأمين الذي آثر المرأة على نفسه وإن كان به خصاصة.. اعتدلت على صوت بائع اسطوانات موسيقى شكرته ولم أشتر..

لكن المرآة التي على يساري عكست لي موقفًا مؤلمًا على الجزيرة في منتصف الشارع.. رجل أربعيني يبحث في القمامة عن بقايا طعام!!

يا لهذا الوجع الذي يملأ أركان الوطن!!

جاءني النادل بالطعام، طعمه شهي حقًا!

أخذت ملعقة واحدة وكان الغلام الذي يمسح السيارة قد أمسى على يساري، سألته بلطف:

- إنت إتغديت يا إبني؟ قال في وجع يشبع الجوعى:

- لا والله ما أكلت في يومي.

فكرت لحظتها أن أطلب له وجبة كوجبتي، لكنني لم أستطع أن أبلع منها ملعقة أخرى.

مددت يدي له بطعامي فقال في انكسار:

- أنا آسف والله ما أقصد.. شكرًا.. قلت له:

- خد يا إبني أنا زي أبوك.

أخذ الطعام وجلس أمام السيارة وأنا أنظر إليه من طرف خفي وهو يأكل بنهم الجوعى، وانكسار اليتامى، وبؤس الضائعين، ناديته وأعطيته أجر ما عمل لنا من عمل، وانصرفت..

كل شيء كان موجعًا..

إيرما الغانية..

أمين الشرطة..

أم الطفل..

الشاب الذي لم يطعم يومًا أو أكثر..

والباحث في سلال البقايا..

آلمتني يا وطني..

(٢٨)

جمعة الغضب

قصة لازم تتحكي

الخميس بالليل كان عيد ميلاد بنتي وكان عندي إخواتي وأخويا محمد -الله يرحمه- فتح الموضوع وإيه ممكن يحصل بكرة؟؟

حكيت الحكاية كأني كنت هناك، وهو طبعًا قال لي:

- خيال صعب..

يوم الجمعة كان عندي رغبة أتفرج هو إيه اللي ممكن يحصل!!

نزلت قبل الصلاة وعديت من الميدان وألاقي آلاف من أفراد الأمن في زي مدني،

عديت الميدان رايح للعيادة بتاعتي اللي كانت في وسط البلد، صليت الجمعة في جامع لقيته في طريقي والدنيا هُس.. بس..

ومن قلقي إني أقف في الشارع لقيت صلاة جمعة لسه شغالة في جامع تاني دخلت صليت الجمعة تاني ووقفت عند العيادة أتفرج، وحبه حبه ظهر ناس والناس كترت.. وبدأت قنابل الغاز.

أنا طبعًا ضربات قلبي حساسة بزيادة قلت بدل ما أروح الرعاية المركزة أطلع العيادة أشم شوية أكسجين، وأشرب كوباية شاي وأشوف الأخبار، وأبقى أنزل..

وقد كان.. والأخبار كانت مخيفة أو غريبة والجموع بقت لا يمكن ردها، قلت أنزل أتفرج في المولد، وفعلًا نزلت جنب العيادة لأجد الانفلات الأمني قد حدث وفي هذه اللحظة افتكرت إن أولادي في البيت لوحدهم..

خدت العربية وطيران من نفق الأزهر على السيدة عيشة على كورنيش المعادي وطلعت الدائري.. ويا ريتني ما طلعت!!

الكوبري عليه إستاندات بلاستك والعة لكن دي مش أكبر مصيبة، فيه مجرمين لابسين نص هدومهم قاطعين الدائري، فكرت أجري بالعربية ويحصل اللي يحصل.

لكن أحد هؤلاء المجرمين لمح محاولتي هجم على العربية بسيف خرم بيه الكبوت..

والوالدة وصل لها شتائم لم أتلقاها في عمري، واقترب الموت مني وصاحبي كان معي فقلت له إتشاهد إحنا ممكن نتقتل..

اقترب طفل مخلص في إجرامه سِنه حوالي ١١ سنة يقف مع المجرمين، كنت ألبس جاكيت بُني شيك وطبعًا ليا دقن خفيفة، وأنا مش عارف لو قلت أنا إيه هيحصل إيه؟!

فتحت الإزاز فتحة صغيرة تسمح بالضرب فقط وعينك ما تشوف إلا النور، أخدت كف قلم من العيل ده على صفحة رقبتي من الجهة اليسرى، إنما قلم مخبرين أورجانيك..

تأكد لي ما سمعته في الأخبار وشبكة الموبايل قطعت وليكم ربنا يا أولادي هو يتولاكم..

نظرت خلفي وقررت آخذ المجازفة حيث كان الطفل سليل المجرمين يقول لي:

- إرجع ورا يا ابن **********

رجعت ورا وفي لحظة لفيت بالسيارة لأصطدم بالجزيرة اللي على الكوبري، أجري بالسيارة كالمجنون في المخالف وأنزل من طلعة الدائري عكس الاتجاه، وأمر على قسم مصر القديمة لحظة حرقه ودخول المجرمين إليه..

وأقول لنفسي مفيش غير بيتي الأصلي في القصر العيني أروح هناك..

روحت ودخلت وهدأت قليلًا.. لكن أنا خايف على الولاد بيقولوا مجرمين بيهجموا على البيوت.. لكن قلت في نفسي.. مفيش فرصة أبدًا للعودة أنا أروح أبات في العيادة والصباح رباح..

تركت السيارة في القصر وتوجهت عبر شارع قصر العيني لأجد الناس تسرق محتويات مجلس الشعب.. اللي شايل كرسي، واللي شايل مكتب، واللي شايل كومبيوتر.

وسحنة المجرمين المنتشرين في كل مكان تدعو لكل خوف، وفجأة لقيت طريق الميدان مقفول، طبعًا قلت أمشي تخريمة من جوه علشان أروح باب اللوق حيث عيادتي، لكن هناك خوف يملأ كل شيء..

دخلت محل البغل وجبت عشرين ساندوتش فول وقلت لصاحبي:

- إعمل نفسك عبيط ولا كأننا جايين من المريخ حاجة كده شبه أفلام فريد شوقي وعاركة الخمارة والراجل المسطول ال قاعد ولا فارق معاه..

وطبعا الفكاكة تودى في المهالك، أنا هنا من ١٥سنة تقريبًا لكن أنا مش عارف ده إيه!!

وفجأة ضرب رصاص حي، وامرأة تصرخ من بلكونة لي ولصاحبي:

- استخبوا في أي بيت فيه ضرب نار..

دخلنا عند مدخل بيت لقينا شباب واقفين لما سألونا عن هبلنا قلنا احنا رايحين باب اللوق فقال أحدهم:

- اللي هناك ده لاظوغلي.. أمن الدولة..

صلاة النبي أحسن..

رجعت للقصر العيني وفضلت واقف بالعربية ورا البوابة ما يزيد عن ساعة علشان الباب يتفتح نص دقيقة أهرب وأروح لعيالي.

ولما فُتح الباب أخدت الطريق الخالي تمامًا من أي أحد على أقصى سرعة حتى اقتربت من البيت، وكان فيه لجنة شعبية عديت منها بأمان.

فلما وصلت البيت وأنا على قيد الحياة انفجرت في البكاء لما رأيت أبنائي

ثم نادى جاري المستشار:

- إحنا لازم ننزل نحمي البيوت.. وكانت ليلة محتاجة حدوته..

(٢٩)

عباس الضو بيقول لأاا

حواديت الدكتوراة عندما أتذكرها أتذكر فضل الله عليّ، بطلوا تتخيلوا إن فيه حد في إيده أي حاجة.. كلنا عبيييييد..

اللي حصل في اللجنة..

حكى لي أحد الحضور كان ومازال حبيبي، لكنه لم يكن بعد ذو صوت مسموع، الإمتحان كان عبارة عن ٧ لجان شفوي وأربع لجان ورقية، قال المسؤول عن الإمتحان فى حضور كل الأساتذة نشوف الأول درجات الشفوي.

كان الذين حضروا الإمتحان ٤٥ طالبًا تقريبًا، وكان الناجحون في كل لجان الشفوي السبع هم ٩ طلاب فقط على ما أتذكر وأنا منهم..

نسيت أقول لكم أن أستاذي الذي يكرهني كان أحد أسباب النجاح، لأنه مشي يشتم فيا في كل لجنة بطريقة مقيتة جعلت كل اللجان تقول الولد ده كويس هو بيعمل معاه كده ليه!! وتأكد الكل إني ساقط ساقط، يبقى بلاش يشيلوا هما دم سقوطي.

وهذا الأستاذ كتبت الأقدار أن يمتحنني فى لجنة مهارات العمليات وكانت الكلية واخده قرار إنه مينفعش المدرس المساعد يسقط في اللجنة دي لأن معناه إن احنا معرفناش نعلمه.

شوف الأقدار لما ترتب، تشغل عدوك عندك ولو كان رئيسك.. أنا إذًا ناجح شفوي بفضل الله..

وترتيب الله لحواديت أخرى محتاجة كتاب ألف ليلة وليلة في قصة كيف ترتب لك الأقدار الخير وأنت في قمة القلق منها، مثلًا إنك قلقان من أولاد الأساتذة إنهم كتير والفرصة كده بتقل.. يقوم أحدهم يؤدي أداءً غير جيد وأنت تأتي من بعده وتؤدي أداءً جيدًا فيقول أستاذ لا أولاد له..

- إذا كان فلان سينجح!! يبقى الأولى إن الواد عبد الناصر ينجح..

سمعتها بعد لجنة كلينيكال بأذني، كان هذا الأستاذ يناديني ب "carpenter".

نرجع بقى للجنة النجاح ال فيها ٩ ناجحين شفوي، نشوف الورقات الأربع، فقال قائل منهم:

- فيه واحد بس ناجح في الأربع ورقات.. لقد كنت أنا هذا الشخص..

قال الذي يكرهني من قلبه:

- كده الواد عبد الناصر هينجح؟!

وهنا كان الله يسير أموري في لجنة النجاح، وجاء من أقصى القاعة رجلٌ يسعى، وليعلم أن بعض من الملأ يأتمرون بي وهو لا يعرفني لا شكلًا ولا موضوعًا وقال:

- اللي اسمه عبد الناصر ده نجح وقصته خلصت، نتكلم في الباقيين..

عبد الناصر مش هيسقط.. الله أكبر

هذا الأستاذ ذهبت له لأشكره بعدما علمت بالأحداث وقدمت له نفسي، فقال لي:

- إنت مين يا ابني؟!

قلت:

- أنا عبد الناصر اللي حضرتك قلت دا ناجح ومش هيسقط، فقال في تذمر:

- ولا أعرفك.. أنا قلت ده لله، وميلزمنيش شكرك..

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمنايا كلهن أمان..

(٣٠)

آخر أيام الشتوية

وأنا أجلس في السيارة وهي محمولة على الونش، تذكرت الأيام الخوالي، أيام الشعبطة والكحرتة، وآخر مرة ركبت أتوبيس..

كانت فكرة الانتقال الدائم بواسطة التاكسي فكرة خارج القوة الاقتصادية آنذاك، لكن آخر مرة ركبت أتوبيس حكاية لازم تتحكي.

الخامسة مساءً في شهر صيفي، الأتوبيس ٧ج بتاع العمرانية، سعر التذكرة خمسة قروش، وأنا في الطريق إلى قصر العيني..

ركبت الأتوبيس من باب الخدامين الخلفي، حسب أوامر قائد الحافلة ومساعده هولونجه -أيوه إسمه هولونجه..

الناس بتقوله يا هولونجه، حاجة زي حزومبل، لو تذكرون يا سادة..

كان الأتوبيس أحمر في أبيض، لكن البياض مع عوامل وعوادم التعرية أصبح ولم يمسي، وأنا أصعد الدرجات الثلاث، دفعتني امرأة في إيدها جوز فراخ بلدي، رابطاهم من رجليهم، وعلى رأسها طشت عرفت فيما بعد إن فيه جبنة قريش..

دفعتني السيدة بقوة وهي تقول:

- خد كده عني..

أخذت الطشت وحملته بين يدي، ولك أن تتخيلني، شاب في الخامسة والعشرين، طوله متجاوز ١٨٠ سم، يلبس بدلة فورمال، و يحمل بين يديه طشت فيه جبنة قريش..

وأنا محتاس في الجبنة القريش، كان أمامي رجلان يحدقان في بشدة، وها هي العباءة تسقط وتتحقق النبوءة ، ويقول أحدهما:

- عنك يا دكتور..

بلا أدنى شك الدم نشف في عروقي، لما سأل آخر:

- بكام الجبنة يا أوستاذ؟!

وتقريبًا كنت هأقعد بالطشت في الجزء الخلفي وأنادي.. جبنة قريش وقشطة..

حمل الرجل عني الطشت، وأنا مذهول من ندائه لي بدكتور.. ما هو مش معقول شكلي بالطشت كده دكتور، قلت في نفسي:

ربما كان فاكرني دكتور بيطري ضاق به الحال وحلب العيانين بتوعه، وعمل جبنة قريش وطالع يبيعها..

كان قميصي أبيض اللون، وعليه خط بالعرض معمول من حافة الطشت، تقدر تقول كده سكر محلي مرشوش عليه كريمة، مسح أحد الرجلين الخط ثم تذوقه ليقول:

- ملحها كويس..

جاء حوزومبل ينادي:

- تذاكر.. تذاكر يا بهوات..

وأنا أقول في نفسي:

- بهوات إيه وزفت إيه؟! إنت ممكن تقول عادي تذاكر يا شوية صيع، هو فاضل بهوية ولا بشوية!!

مددت يدي لأخرج العشرة قروش، لكن صرخة خرجت من الرجل الذى ينظرني، وحمل عني الطشت قائلًا:

- عليا الطلاق ما إنت محاسب يا دكتور، زغرت له وقلت:

- دكتور مين حضرتك !؟؟ فقال مُصرًا:

- دكتور عبد الناصر..

وأنا أريد أن أحلف طلاق على طلاقه إني مش عبد الناصر.. لكنه أكمل :

- أنا مش ممكن أنساك يا باشا.. وأنا صامت صمت القبور، أحملق في عينيه البائستان، ووجهه الشاحب من نقص الهيموجلوبين، وهو يكمل على بالضربة القاضية، دكتور عبد الناصر نايب قسم تلاتين في القصر العيني..

لم يعد هناك مجال للإنكار أمام حضرة الظابط، لكنني ابتسمت وقلت له وكأنني أختبره:

- وإنت تعرفه منين دكتور عبد الناصر؟! ما ممكن بخلق من الشبه أربعين؟!!

خلع الرجل الجلابية، وبقى بقطعة ملابس صغيرة جدًا ومقطعة، وأنا والسواق والكومسري والراكبين الشرفاء، في غرابة من حكاية القلع دي..

لكنه نادى في الناس بأعلى صوته، وهو يشير إلى جرح في الجانب الأيمن من بطنه، في المنطقة السفلية، فوق قطعة الملابس البالية، وهو يخبرني أنني أجريت له عملية فتاق، والنتيجة مبهرة..

تجمع الناس لينظروا الجرح، والبعض يحسس عليه، وأنا أتلاشى من القوم من سوء ما بُشرت به.. وكأنني في الموسكي، والرجل ينادي:

بص يا هانم.. بص يا بيه..

جرح ولا كأنه..

لا تقولي ليزر ولا فيزر..

خشي يا هانم خدي فكرة..

بص يا بيه الجمال..

شغل مجاني في القصر العيني..

شغل خمس نجوم..

شغل المعلم لابنه..

شغل فنادق يا شبح..

واللي ما يشتري يتفرج..

كان الليل قد أرخى سدوله على رأسي الخاوية، والحلم أن يسقط الأتوبيس بركابه ورجل الفضيحة في ترعة الزمر..

لكنني أمسكت زمام المبادرة، وكان إسم الرجل قد ذكره صاحبه، فصرخت فيه قائلاً:

-أنا مش قلت متشيلش حاجة تقيلة يا إسماعين؟؟!

وكأنني حضرت العفريت، لما ذكرت الإسم.. وها هو يصرخ:

- اللهم صلي على النبي.. عالم من العلماء، وولي من أولياء الله الصالحين..

كنا قد وصلنا محطة الجيزة، وصاحبة الجبنة على وشك النزول، حَمَّلت عليها الطشت، ونزلت للميدان، ولم يدفع أحدنا تمن التذكرة؛ لأن المولد كان أكبر من تركيز هولونجة..

☆ تعريف بالكاتب ☆

★ الأستاذ الدكتور عبد الناصر محمد النجار.

★ مواليد قرية شرباص، محافظة دمياط، يناير ١٩٦٧.

★ حصل على بكالوريوس الطب، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٠، بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف.

★ حصل على الماجستير فِي عام ١٩٩٤.

★ حصل على الدكتوراة فِي الجراحة عام ١٩٩٨.

★ أستاذ بكلية الطب منذ عام ٢٠١١.

★ رئيس قسم جراحة التجميل، كلية الطب، جامعة بني سويف حتَّى عام ٢٠٢٣.

★ حاصل على ليسانس الحقوق عام ٢٠٢١.

★ عضو الجمعية العالمية للتجميل **ISAPS**

★ عضو الجمعية المصرية للتجميل **ESPRS**

★ *الإصدارات السابقة* ★

★ حكاوي المندريش.. "نثريات" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ يوميات طالب من الأرياف.. "سيرة ذاتية" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ البر التاني.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ وصول النيزك.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٥م.

★ الطوفان.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٥م.

★ الحسناء والمجنون.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٥م.

★ حكايات بلدنا.. (سيرة ذاتية) عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٥م.

المُحتَوَيات

الإهداء ٥
(١) ألف يوم ويوم ٨
(٢) أنا الحُسين ١٠
(٣) إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك!! ١٤
(٤) أعظم دروس الأقدار أنه ليس لك من الأمر شيء. ١٧
(٥) إديني عمر واضربني بعدها بالنار ٢١
(٦) وللسِمنة فوائد لا يعرفها إلا من طُعن بالسكين ... ٢٥
(٧) عم شقاوة كله شقاوة ٢٨
(٨) أم هدير زباينها كتير ٣٢
(٩) أم هدير تستاهل النحت ٣٧
(١٠) المعلم تقاوي ٤٠
(١١) العار ٤٤

(١٢) والطريق.. جريمة قتل ٤٧
(١٣) بالعربي Face off ٥١
(١٤) التكبير خسرنا كتير ٥٥
(١٥) التكبير علمنا كتير ٥٩
(١٦) وكان التكبير أول التذكير ٦٣
(١٧) إحنا لازم كلنا نعمل كده ٦٦
(١٨) في لحظات الحفاظ على الحياة يصبح كل شيء مباح ٦٩
(١٩) توحة المجروحة ٧٢
(٢٠) خطبة الجمعة ٧٥
(٢١) القرصان ٧٩
(٢٢) قراءة خارج السرب ٨١
(٢٣) أيام لا تُنسى ٨٤
(٢٤) العيان الكريتف رزق ٨٦
(٢٥) الزوجة الهبلة رزق ٨٩

(٢٦) واتقابلنا مرة تانية ٩٢
(٢٧) وقالت الضائعة ربنا مبينساش حد ٩٦
(٢٨) جمعة الغضب قصة لازم تتحكي ١٠٠
(٢٩) عباس الضو بيقول لأا ١٠٥
(٣٠) آخر أيام الشتوية ١٠٨
☆ تعريف بالكاتب ☆ ١١٣